المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ ديسمبر سنة ١٩٤٩
١٠ صفر سنة ١٣٦٩

وداع وترحيب

حالت جهود زميلنا العلامة الاستاذ اسماعيل مظهر في مضمار العلم وانشغاله بوضع معجم علمي كبير دون التفرغ لتحرير المقتطف ، وان ادارة المقتطف التي لقيت من جهوده معها خلال السنوات القلائل التي أشرف فيها على تحرير المقتطف بالروح العلمي والأدبي الذين لمسهما قراؤه والمعجبون به منذ كتب في المقتطف من سنوات بعيدة لتأسف على ان تحرمها هذه المشاغل من جهود الاستاذ الكبير ، آملة ان تظل علاقته بالمجلة وهو بعيد عنها كما كانت قبل توليه رياسة التحرير ذاكرة له فضله وجهده

وقد رأت الادارة ان تندب لهذا العمل الكبير العلامة الاستاذ نقولا الحداد وهو العالم الاديب صاحب المكانة الادبية الرفيعة آملة ان يكون للمجلة في عهد انتدابه وسيع الخطى ورفيع المكانة محتفظاً بالمستوى العلمي والادبي الذي أصبح طابعاً لهذه المجلة

وليس العلاّمة الاستاذ نقولا الحداد بالغريب عن قرّاء « المقتطف » ، ممن يتابعون جهوده العلمية والادبية على صفحاته منذ عهد محرّره الاول المرحوم العلاّمة الدكتور يعقوب صرّوف .

النسبية

في العملة المتبادلة

نحن الآن في وقت يضطرب فيه البحر الاقتصادي اضطراب اللجج تحت العاصفة المندفعة . ولا يكاد يستقر على حال — عملة ترتفع وأخرى تنخفض وأسعار تغلو ثم ترخص تبعاً لتذبذب العملة . فما هو المستوى الذي ترتفع العملة اليه وتسفل عنه ؟

الجنيه الاسترليني هبط ٣٠ بالمئة فهبط الجنيه المصري معه .

بالنسبة لأية عملة هبط ؟

هذا هو السؤال الوجيه الذي يخطر للمفكر .

يقولون إنه هبط بالنسبة إلى الدولار . والآن يشاع أن الدولار سيهبط أيضاً . أو أن الذهب سيرتفع . ومعنى هذا أن الذهب هو المستوى الذي تتذبذب العملات من حوله من فوقه ومن تحته . فلنرَ هل الذهب يعتبر المقياس الذي تقاس به عملات العالم أجمع ؟

قبل هبوط الجنيه كان الاسترليني يباع في انكلترا بما يساوي نحو ٢٢٠ قرشاً في حين أنه كان يباع هنا بأكثر من أربعة أو خمسة جنيهات بحيث إنه لو تيسر لك أن تشتري الذهب في انكلترا لأمكنك أن تبيعه في مصر بضعفين . ولكن هذه العملية مستحيلة بسبب تعذر اشتراء الذهب في انكلترا والخروج به منها . وكذلك الأمر في سويسرا وأميركا وغيرها . ومعنى هذا إنه ليس للذهب قيمة ثابتة وبالتالي لا يصلح أن يكون مقياساً لقيم العملات .

يعتبر الذهب سلعة غالية كسائر السلع يباع ويشرى على قاعدة العرض والطلب . وهو ذو قيمة غالية لأنه غير معروض بحرية في الأسواق بل هو مخزون في أقبية المصارف وبعض خزائن الحكومات .

ثلاثة أخماس ذهب العالم مخزون في أميركا . ولهذا يعتبر ورق العملة الأميركاني متيناً لأن وراءه ذهباً يفتديه على اعتبار أن الورق لم يطبع وينزل إلى السوق كنقد إلا لأن وراءه ذهباً يحل محله إذا رام حامل الورقة أن يبدلها به . وما درجت عملة الورق وقبل

الناس أن يتداولوها كنقد إلاّ على هذا الشرط، أي إن لحامل الورقة الحق بأن يطلب من بنك الحكومة قيمتها ذهباً .

هذا كان الشرط حين شرعت الحكومات تصدر أوراق النقد بضمانة ما عندها من الذهب . ولكن ما من حكومة تملك من الذهب قيمة ما تصدره من الورق حتى ولا نصفه ولا ربعه . وليس في خزينة مصر من الذهب أكثر من ستة ملايين جنيه ولكنّ في السوق من الورق المصري عشرين أو ثلاثين ضعف هذا الرقم . ولعلّ ذهب أميركا الكثير لا يضمن عُشر الورق الأميركي المتداول في أميركا .

فماذا يضمن هذا الورق إذاً ؟

يضمنه أولاً الثقة العظمى بقوة الحكومة في حفظ الأمن والدفاع عن الوطن . واذكر أنه لما شبّت الأزمة المالية في الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٠٦ خاف الناس من افلاس البنوك. فهرعوا إليها لكي يسحبوا ودائعهم منها وهي أكثر كثيراً مما في البنوك من الورق والذهب . وازدحموا لدى أبوابها حتى خيف على البنوك من الإفلاس ، لأن ودائعهم فيها كانت أضعاف ما عندها من نقدٍ . ولذلك أصبحت أميركا كلها مهددة بكارثة مالية لا محيص منها .

وطغت منها الكارثة على جميع العالم . وكان لمصر نصيب منها . فأصدرت الحكومة الأميركية موراتوريوم (وقف الدفع) لم تصدر مثله منذ عشرات السنين ، وشرع الرئيس ثيودور روزفلت يطوف في العواصم الأميركية ويلقي الخطب لكي يطمئن الناس قائلاً :

لماذا هذا الجنون ياقوم ؟ نحن في بلادنا بألف خير . فلا قحط ولا محل ولا ثورة ولا حرب ولا ضائقة طبيعية .

ثم استوردت أميركا من انكلترا حينئذٍ مئة مليون جنيه ذهباً وأودعتها في البنوك الكبرى وأودعت معها جميع الأوراق المالية التي تملكها كضمانة لودائع الناس . ومع ذلك ما اطمأنّ الناس ولا سكن روعهم . والشاهد في هذا الحادث ان الذهب الأميركي وغيره لم يكن ليطمئن الناس، فكأنه كان لاقيمة له .

والحق ان الذهب المخزون الآن في خزائن الحكومات ومصارف الأمم لا قيمة له البتة. والحقيقة أنه لا قيمة للمال إلاّ إذا أنفق في ما يفيد الجمهور حتى ولو كان في الجيوب فكيف به إذا كان محبوساً في الخزائن ؟ فكيف إذن يمكن أن يكون الذهب مقياساً للعملة ؟

وفي بعض الأحوال يكون الذهب تافه القيمة . مثال ذلك في الحرب العظمى الأولى اشتدت المجاعة في لبنان لأن الطاغية جمال باشا القائد العثماني منع دخول الغلال إلى لبنان.

وما كان فيه منها حجزه أحد السراة هناك ولم يبع منه إلاَّ لمن معه الذهب الوفر . فأصبح القمح حينئذٍ يباع ويشرى بالليرة العثمانية أو الفرنساوية . فكأن الذهب هبط إلى عُشر ثمنه حينئذٍ . فكيف والحالة هذه يمكن أن يكون مقياساً للعملة .

إذن أين نجد مقياساً ثابتاً للعملة ؟ ما دامت قيمة الذهب تطلع وتنزل حسب الظروف والأحوال ، وما دامت تختلف في بلد عنها في بلد آخر .

ظنَّ بعضهم أن قيمة القطن يمكن أن تكون مقياساً للأسعار وبالتالي للعملة . لأن جميع العالم يحتاج الى القطن كما يحتاج الى القمح . ولذلك كنا نرى أن بورصة القطن عندنا تضطرب كاضطرابها في نيو اورلينس الفرضة العظيمة الشأن في ولاية تكسس ، وهي أعظم مصدر للقطن في العالم . وكانت ولا تزال أخبار أسعار القطن ترد إلى مصر من نيو اورلينس. وأسعار القطن في أميركا ومصر وبعض البلاد الآسيوية الواقعة في مناطق السوفيات الروسية وغيرها تتأثر بعض التأثر بأخبار الأسعار الأميركية . ومع ذلك لا يمكن الاعتماد على هذه الغلة من المزروعات ، وان كانت لازمة لكل بلد في الدنيا لأجل الغزل والنسج لأنها متقلبة الأسعار جداً كما هو معلوم .

وربما خطر لبعضهم أن يعتبر سعر البترول مقياساً للعملة أو للأسعار والأثمان لأنه يستخرج من بلاد كثيرة وتتداوله جميع الدول . وكان البترول من جملة أسباب الحرب وأهم لوازمها ومن جملة السلع التي يتوقف عليها النصر . وربما كان من أسباب خسران الألمان الحرب نضوب حاجتهم من البترول . ولكن لا يمكن أن يكون مقياساً للاسعار وقيمة العملة لأن أكلاف استخراجه ونقله تختلف في أي ناحية عن أخرى

بقي أمر واحد يمكن أن يخطر على البال وهو قيمة عمل العامل . ففي كل بلد تتحدد قيمة عمل العامل وتتعين أجرته . ونقصد بالعامل الفاعل الذي يشتغل الأشغال الشاقة التي لا تحتاج الى ذكاء وفن .

فلك أن تقول مثلاً : إن الجنيه المصري يساوي خمسة فعلة أو ستةً أو سبعة . فهذه التسعيرة للجنيه بقيمة عمل العامل تصلح في البلد الواحد ولكنها لا يمكن أن تطلق على جميع البلدان . فقيمة عمل العامل في أميركا أضعاف قيمة العامل في مصر أو في اليابان مثلا

فاذن بعد هذه السياحة بين الذهب والسلع والحاصلات والأعمال لا يمكن أن نجد قيمة مالية ثابتة تقاس بها الأسعار أو العملة أو الذهب نفسه. فجميع هذه المسعرات والمثمنات تختلف بنسبة بعضها الى بعض . ولا قياس ثابت لها البتة . فقيمة العامل تقدر بقيمة ما يعمله . وقيمة ما يعمله تثمن بالجنيه الورقي . وهذا الجنيه يثمن بقيمة الذهب . وقيمة

الذهب تحدد بمقدار ما يبتاع به من السلع للعامل . وحينذاك يرى العامل أن قيمة عمله لا تكفي لابتياع حاجته اليوم في هذا البلد أو تزيد غداً عن حاجته في بلد آخر

فكيف حاولنا أن نحدد قيمة للعملة أو للسلعة أو للعمل لا نجد مقياساً ثابتاً . فاذاً المثمنات والمسعرات والمقدرات لا قيمة مقررة لها ، بل تتناسب قيمها بعضها مع بعض . وهذه القيم متضاربة متذبذبة مترجرجة لا تستقر على حال على الاطلاق . فنحن من هذا القبيل كأننا في بحر متلاطم الأمواج متصادم اللجج . لذلك لا يمكن أن نضع قاعدة ثابتة لاسعار الذهب أو السلع أو العمل .

فما أشبه هذه الحالة بالنسبية الطبيعية، نسبية اينشطين .

في هذا الكون المادي لا يمكنك أن تعرف سرعة أي جرم الا بالنسبة الى سرعة جرم آخر . وسرعة هذا الآخر لا تعرف الا بالنسبة الى سرعة جرم آخر وهلم جرًّا . يمكن أن تعرف سرعة الأرض بالنسبة الى الشمس (أو أي سيار) ولكن الشمس سائرة بسرعة ١٢ ميل في الثانية الى نجم النسر الواقع. وهذا سائر بسرعة أخرى في مدار المجرة. والمجرة دائرة بسرعة معينة حول مركزها ، وبسرعة اخرى بالنسبة الى سائر المجرات وهكذا دواليك . فلا يمكن أن تعثر على سرعة مطلقة في هذا الوجود . ولا تعثر على جسم ساكن ثابت تعرف بالقياس اليه سرعة أي جسم مقبل اليه أو مدبر عنه

وقد حاول العلامة ميكلسن الأميركي أن يستخرج سرعة الأرض في بحر الايثر على ظن أن الايثر ساكن . وقد عمل عملية معقولة جدًّا متقنة الوضع محكمة الآلة . وجرَّبها مع عالم آخر يدعى موزلي مراراً وعلى أشكال مختلفة . فلم يمكن أن يتوصلا الى نتيجة مقنعة ، وانما خرجا من العملية بأنه ليس في الوجود سرعة مطلقة تقاس بها سرعات الأجرام الأخرى. بل أن جميع السرعات تنسب بعضها الى بعض. حتى سرعة النور التي عرف قدرها وهو ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية تختلف بالنسبة الى سرعات السيارات والنجوم وأية سرعة في الطبيعة

فاذا كانت سرعات الأكوان نسبية فلا بدع أن تكون قيم الذهب والسلع تختلف بنسبة بعضها الى بعض .

وهكذا كل ما حولنا وفينا من صور الوجود نسبي .

والقوة نسبية ، والعدل والظلم نسبيان ، والحق والصواب نسبيان كما تعلم . النسبية سنة الوجود .

نقولا الحداد

نظرات في النفس والحياة

- ١٨ -

تتمة نظرات جوتا

تنقسم حياة جوهان ولفجانج فون جوتا الى عهود : أولاً عهد العاصفة والشدة وهو عهد الاندفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال وفيه ألَّف (جوتز) و (ورتر) . ولو انه لم يكن مستسلماً كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هِتْنَرْ) بالنون و (دودِن) لمعنى مؤلفاته في ذلك العهد . ثم يأتي عهد رحلته الى ايطاليا ومكثه فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً الى المذهب الكلاسيكي وزادت الأثر الذي كان قد اقتبسه بقراءة كتب القدماء . وبعد عودته بدأت صداقته لشيلر الشاعر وكان شيلر أشد ميلاً الى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما في قصة (وليام تل) و (اللصوص) و (دون كارلوس) و (عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتر) كما أن في قصص شيلر أناساً وصفهم بصفات الكمال الانساني بينما أناس قصص جوتا يتعثرون في أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزناً فلم يحاول اطفاء ثورة النفس على مفاسد الحياة ونظمها . ولكنه مع ذلك كان يدعو الى تطهير النفس أولاً من شوائب الأحقاد والأثرة قبل حمل شعلة الحرية المقدسة . وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى انه أنفع من الطفرة التي تؤدي الى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس .

ولعلّ اتزانه هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له . وفي كلماته نجده يحاول إبراز الحق الذي في الآراء المتناقضة ويرى أن من الحكمة أن لا يهمل الحق الذي يخالط الباطل . وهذا من شدة اعزازه للحق وصيانته له من الضياع في أي جانب كان بينما كان غيره اذا أراد محو باطل لا يصون الحق الذي يمازجه . ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال انه يتردد بين النقيضين ولا تردد له . ولعلّ هتنر (بالنون) هو الناقد الذي فسره أحسن تفسير وتابعه ادوارد دودن . ومن تفسيرهما نرى ان ورتر في قصة (احزان ورتر) يمثل الشاب الذي يعالج

احساساً شديداً لا يؤدي الى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدي الى الهلاك كما أدت الى هلاك ورتر. فهو لم يصف ورتر كي يكون بطلاً يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه. ولكن كثيراً من الشبان تشبهوا به فهلكوا. ولعلَّ سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتر وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لأخطأ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فني.

وفي قصة (ولهلم مايستر) يتدرج الشاب ولهلم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة الخرقاء وهما يستهويانه مرة بعد مرة. فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه الى العمل الصحيح المنتج والى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلاً طويلاً قد يضل معه القارىء اذا كان شابًّا وقد يستهويه ذلك الضلال. ولكن جوتا لا يريد للشاب أن يتعلم كما تعلم ولهلم مايستر من عيوبه وأخطائه اذ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ما هو أنفس وأطول من أن يضيع هكذا. ومن أجل ذلك رسم خطة للتعليم تجنب الشبان مثل أخطاء ولهلم.

وكذلك نرى في قصة (تاسو) الرجل الذي يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقاً ينجيه. أما في قصة فوست فنرى فوست الذي استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك حبيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليها وكاد يذهب ضحية الاغواء لولا انه ارتدع واتعظ وعصى ابليس (مفستو فيليس) في اللحظة الأخيرة. وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست في أكثر حياته (ولو انه عرضه عرضاً فنيًّا مغرياً) بل هو يرى أن لا نجاة للعالم والأمم الا بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم.

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درساً وموعظة ويخطىء من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد.

* * *

وبالرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه. فمنهم من أسقطه ومنهم، وهم الكثرة، من رفعه الى السماء سماء الفن والثقافة: قال (بورن): «لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام. ولكن الأبطال لا تردعهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفاسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التمس الفقير المريض

الذي عاش بالرغم من ذلك حر الرأي ، وملتون الذي لم يمنعه قرض الشعر من محاربة الاستبداد »

وقال منزل : « ان كل مؤلفات جوتا انما هو عرض لشخصيته في أحسن وضع فني . فالرجل مع خصوبة ذهنه وخياله ما كان يهمه غير نفسه واشباعها من كل احساس بمظاهر الجمال . وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألماني ان يحصل عقله وعقل قومه نير كل ثقافة وان يداعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذي همه الترف واللذات والأثرة »

وقال جان بول رختر: «عند ما أردت أن أزور جوتا قيل لي انه الآن لا يعجب بشيء ولا يستحسن شيئاً وحتى نفسه التي كان يعجب بها أصبح لا يعجب بها . فسألت صديقاً لي ان يحولني الى حفرية متحجرة أقدمها له لعلّ غرابة شكلها تستدعي تنبهه لها . وفي أثناء الحديث ظلّ ساكتاً الى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر . وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة قلبه كي تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه » وهذا الجمود ضد ما وصفه به جليم في شبابه .

وقال كارليل «ان عصر جديد ، ذلك العصر الذي يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل عيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقاً في اتجاه وطريق كان لا يمكن اختراقهما . وهذا هو ما صنع جوتا ، ومؤلفاته هي مرآة عصره الذي وصفه وأوضحه وفسره » .

وقال نيبوهر : « إن الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر . وجوتا قد بلغ في قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره . وبسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم للأدب الألماني وتحترمه » .

وقال أمرسون : « ليس في العالم شيء لم يهتم جوتا بدراسته وتفهمه . فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة . وقد وصل في بحثه إلى حدود المجهول . ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليماً كما كان قدماء الإغريق يقولون أن الاسكندر المقدوني وصل في فتوحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءها ».

* * *

وفيما يلي تتمة لما أختير من كلماته مع بعض التعليق عليها : —

(١) مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه

الحياة فإن في النفس نزوعاً خفياً إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملأ للنفس من تلك الحياة المألوفة المعتادة . والنفس تبحث حولها عن وسائل تدني بها تلك المطالب وترضى بها تلك النزعات – وقول جوتا هذا يذكرني بقصة جون بوكان التي عنوانها (ملوك اوريون) وهو يتخيل فيها ان ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم ان يهبطوا إلى هذا العالم الأرضي ، وإن تعيش نفس كل ملك في نفس انسان من السوقة : وقد ذكر في المثل القديم ان نفس كل انسان تجمع بين قرد وأسد . وفي قصة جون بوكان ترضى النفس بالحياة المعتادة المألوفة حتى إذا تحركت نفس الملك التي فيها نزعت إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وملكات أسمى مما اعتادته .

(٢) كلما تعلم الإنسان درساً هاماً في الحياة عاقه الفقر الروحي عن الاستفادة منه كل فائدة . ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئاً قليلاً من الخبرة به . ولعلّ هذا الفقر الروحي كما سماه جوتا أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكي هو سبب تخلف الإنسان عن مسايرة العلم وسبب عدم الإستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جوليان هوكسلي وسبب اختلال حياة الناس واعتزازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين زاعمين أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكري . وهذا من باب جعل الانسان نقصه وعيبه محمدة وميزة . وهذه الصفة في الإنسان قاعدة عامة سيكولوجية كما أوضح جوتا في مقال سابق أي تحويله نقصه إلى مبدأ محمود .

(٣) قد يخطىء من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيبة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء . ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعوه إلى الاسترسال وقلة الحيطة ، فينكشف أمره لدى شريف النفس ، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفته نفس الشريف النفس تطلعه أيضاً على احتيال الماكر الخبيث .

(٤) لا يستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلاّ على أساس الأمور الواقعة الكائنة ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلاّ عن طريق الأمر المحدود . وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه وازدهاه الخيال واستعبده الوهم .

(٥) القوة التي تدعو المرء إلى التحكم والإثرة هي القوة نفسها التي لو شاء دعته إلى أن يملأ حياته جمالاً وحرية وأخاء فتعم العالم هذه الأمور . ولكن عليه أن يوجه تلك القوة في نفسه الى الجمال والحرية والأخاء توجيهاً مستأنفاً مستمراً مثابراً عليه .

(٦) إن الشعور الشديد في النفس إذا لم يُتَّخَذْ كقوة لأداء عمل نافع كان مرضاً وأدّى إلى اختلال الحياة .

(٧) إن الخرافات جزء أصيل في النفس الإنسانية فإذا حاربناها فإنها تختفي حتى نظن أنها قد زالت . ولكنها تكمن في خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر . (هذه النظرية لا تطلق على جميع الناس . فهناك أشخاص قمعوا كل خرافة قمعاً أبديًّا فلا يمكن أن تجد في أنفسهم فرصة لكي تظهر — المقتطف)

(٨) إن الرجل الذي يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التي ينبغي أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختاراً غير مقهور يستطيع مع ذلك أن يصل الى الحرية . أما الرجل الذي يُقْهَرُ على التزام تلك الحدود والقيود قهراً فإنه قلما يصل إلى الحرية وهو إن وصل اليها وجد لها مرارة وألماً

(٩) لا تنال أمة ملكة الحكم على الحقائق حكماً صادقاً إلاَّ إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكماً صادقاً . فالأمة التي تتهرَّب من الحكم على نفسها لا تستطيع الحكم على الحقائق حكماً صادقاً . وهي لا تستطيع الحكم على نفسها إلاَّ بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعي الصادق .

(١٠) إن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تُطِير منها ما هو شبيه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل . فالعنف ليس السبيل لمحاربة الرأي لأنه يعدّ عجزاً عن محاربته بالحجة .

(١١) ليس النجاح في الحياة في معرفة النفوس البشرية بل في أن تكون أكبر لباقة ومهارة في وقت معين من منافسك الذي هو أمامك يواجهك . فربما كنت خبيراً بالنفوس ولكن لا تستطيع أن تنتفع بخبرتك .

(١٢) من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضاً حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث في كثير من الأحوال عند الحكم على الناس وهذا كما قال رومان رولان : « إن كل انسان لغز يصعب حله سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره ومع ذلك فلا يستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق إذ أن هذا الحكم جزء ضروري من الحياة

ع . ش

ما هي الغاية القصوى

طفل المعرفة يسأل هذا السؤال . ثم يجيب : —

أعرف إني موجود لكي أنسل نسلاً من نوعي كما ان أبي وجدّي وُجدا لهذه الغاية وإبني وُلد لهذه الغاية . وهكذا تستمر السلالة ما دامت الكرة الأرضية صالحة للحياة. فمتى هبطت الحرارة إلى ما تحت الصفر ولم تعد الحياة ممكنة تنقرض الأحياء عن الأرض ومن جملتها الانسان ، ذلك لأن التفاعل الكيماوي بين العناصر الحيوية لا يعود ممكناً في البرودة المتناهية .

— ولماذا وجدت الأرض ؟

لأن التطوُّر المادي اقتضاها . ولأن لها رسالة يجب أن تقوم بها ، وهي أن تنشيء الحياة . ورسالة الحياة أن تنشئ العقل . ورسالة العقل أن ينشيء الجمال والضمير . والجمال شيء نسبي . والحكم فيه للعقل وحده .

وما الغرض من الضمير ؟

الغرض منه أن يقرر العدل والحق ، وبهما يتم الجمال الطبيعي والاجتماعي .

— وما الغاية القصوى من الجمال والضمير والعقل والحياة ؟

الغرض منها أن تحوّل الطبيعة المادية أن تنفذ سننها . وللمادة سننٌ تسير بموجبها . وجميع هذه السنن ترجع إلى سنة الجاذبية. فهناك السنّة الالكترونية، والسنّة الكيمية، والسنّة الحيوية — كل هذه تتجه إلى تنظيم هذا الكون الأرضي بما نرى فيه من قوى ونظام وجمال وعقل وذكاء .

ومن سنن الجاذبية دوران هذه الأفلاك في مواعيد لا تختل قيد شعرة ولا قيد لحظة وما الغرض من كل هذه الأحاجي الهوجاء الصاخبة ؟ — أكوان متلائمة في حركاتها غير متعارضة ولا متصادمة .

— وما مصير هذه الأكوان ؟

تذوب شعاعاً وتتناثر ذريرات اثيرية في هذا الفضاء اللامتناهي .

— ثم ماذا ؟

تعود هذه الذريرات الأثيرية فتتكوَّن ثانية اجراماً وتتداور في هذا الفضاء . ويحتمل أن تتولَّد منها أرضٌ كأرضنا وتتولَّد من الأرض حياة وعقل، أو تتولَّد ظاهرات أخرى من طراز آخر . ثم تعود هذه الأجرام ثانيةً فتذوب شعاعاً وتتناثر ذريرات أثيرية وتعيد سيرتها السابقة مرَّة أخرى، كما تكررت هذه السيرة من قبل مرَّات لاعداد لها بلا بداية، وكما ستكرر فيما بعد إلى ما لا نهاية له .

— متى ابتدأت سيرة الكون الأولى .

لا بداءة لها .

— ومتى تنتهي .

لا نهاية لها . الكون كله دوران أجرام وذرات لا أول له ولا آخر ، لا في الزمان ولا في المكان .

— وما الغرض من كل هذه الحركات الهوجاء الصاخبة ؟ وما الغاية من هذا العقل ومن الحياة ومن دوران الأفلاك ومن هذا الوجود على الإطلاق ؟

إن كنت تستطيع أن تتصوَّر أو تعلم أول هذا الفضاء المكاني وآخره وما وراءه وما قدامه ، وما وراء ورائه وما قدام قدامه — إن كنت تستطيع أن تتصوَّر هذا أو تحدُّه تستطيع أن تفهم أو تتصوَّر ما الغاية القصوى من هذا الوجود .

ولكننا نعلم أن لكل خطوة من خطوات هذا الكون ولكل صورة من صوره غاية خاصَّة به ، فهي ، وحالة الكون الأرضي كما هي اليوم ، مستجدة من خطوة سبقتها ومستمدة منها ، هي الاجتماعية الانسانية . وهذه الاجتماعية هي خطوة أولى للمدنية التي نحن فيها الآن . فلذلك يجب أن تكون لنا غاية من مدنيتنا وصورة جديدة لمدنية أخرى تنبثق منها . فما هي الخطوة التالية وما هي صورتها .

في رأي برغسن وغيره من فلاسفة هذا العصر إن كل شكل من أشكال الوجود كان مضمراً فيما سبقه . ومدنيتنا كانت مضمرة فيما سبقها من المدنيات البدائية . وتطوُّرات المجتمع هي سلاسل متداخلة بعضها ببعض . أو بالأحرى هي أعواد منبثقة بعضها من بعض كأعواد القصب ، أو هي براعم نبتت بعضها من أطراف بعض ، لاحقتها كانت ضمن سابقتها ، كأنها جميعاً مطويَّة الواحدة ضمن الأخرى ، وعامل التطوُّر كان يفرزها .

المدنية الشرقية الحالية انبثقت من مدنيتي مصر وبابل (بغض النظر عن مدنية الشرق الأقصى . فلتلك مجرى آخر مماثل . وقد اندمج أخيراً بهذه) وكانت حبلى بمدنية الكهانة

والحكمة والفن كما نرى في آثار هياكلهما وصناعتهما . ثم تمخضت هذه بمدنية الفلسفة والعلم والحكمة التي تصوغ الأخلاق وتتطبّع الأدب النفسي . وقد نشأت في شمال أفريقيا ورومه . ثم انبثقت منهما مدنية العلم والشريعة في أوروبا وفي سائر بلاد البحر الأبيض . وأخيراً انفجرت منها جميعاً مدنية العلم الطبيعي ، فانبثقت منها مدنية الاختراعات التي هي طاقة مدنيتنا الحديثة .

فترى أن مدنية الاختراعات كانت مطويّة في المدنيات السابقة إذ كانت جرثومتها جنيناً في رحم المدنيات القديمة .

تُرى كيف تكون المدنية الجديدة القادمة التي تنطوي عليها مدنيتنا الحديثة ؟

الاختراعات التي استخرجت من الطبيعة كل ما فيها من نفع وجمال وبهجة أصبحت تهدد الإنسان بويلات لم تخطر له ببال من قبل . ولكنها بالحقيقة لم تكن إلاّ وليدة محاسن المدنية التي سبقتها — مدنية عهود البداوة والهمجية .

قبل أن نشأت اجتماعية الإنسان كانت متكونة في بطن اجتماعية أشباه الإنسان the apes كالشمبانزي والأوران الخ ، وكبعض أنواع الحيوانات كالنحل والنمل . وماذا كان غرض الطبيعة من اجتماعية أشباه الانسان ؟ كان الغرض منها التعاون للحرص على البقاء وللتمتع بالجمال .

فاذاً هدف اجتماعية الانسان ومدنيته الحرص على بقاء الإنسان وتمتعه . وقد بلغت هذه المدنية هذا الهدف إلى أقصى مداه . فالنوع الانساني طغى على جميع أنواع المملكة الحيوانية . وليس في سائر أنواع الحيوان نوع يضاهي الإنسان بالنمو العددي والانتشار المكاني والتمتع .

ولكن وأسفاه لقد سبق ذلك التعاون للحرص على البقاء تنازع للبقاء حادٌّ يفضي الى القتال . ثم انتقل هذا التنازع الى المدنيات المتوالية وما زال يشوه مدنية التعاون ويثلم محاسنها

الاختراعات التي جاءت زينة المدنية الحديثة وسبب بهجتها كميراث من المدنية السابقة جاءت ومعها ويلات للانسان قد تكون سبب فناء مدنيته هذه الجميلة

جاءت مدنية الاختراع بالفقر المدقع الى جنب الغنى الفاحش . وجاءت بالقتال والحروب الى جنب أسباب السعادة والسلام . وجاءت بالدمار والخراب في صميم العمران والفلاح . فهي مدنية المتناقضات التي تفني بعضها بعضاً .

فما سبب هذا الخطأ في سير الطبيعة ، وعهدنا بالطبيعة سائرة على سنة التطور التي تكفل

الرقي من أدنى الى أعلى ومن أقبح الى أجمل ! .

السبب أن مدنية العلم والفن والاختراع تركت وراءها مدنية الحكمة التي تطبّع الأدب النفسي وتطوّع الأخلاق . فهي متطرفة بالرقي المادي ومقصرة في الرقي الخلقي ، ذلك لأن اللذة المادية أقرب منالاً واللذة النفسية أضيق مجالاً . وهذا أهم مظهر من مظاهر خصومة النفس والجسد .

بقي أن نسأل ، ما هي الغاية القصوى من هذه المدنية التي امتازت بتناقضاتها . وبعبارة أخرى ما هو مصيرها ؟

ليس في الامكان التنبؤ بالمصير . وإذا شئنا أن نبحث عن تشكل جنين المدنية القادمة في بواطن مدنيتنا رأينا أن هذه تنطوي على أسباب فنائها . فاذا بقي رحم العلم والفن خصيباً يلد أسباب الرقي المتناقضة ، وبقي العمران يتناول منها أجنة الشهوات الجسدية مجردة عن مواليد اللذات النفسية ، قربت المدنية الحالية الى عهد احتضارها . وربما كان الجنس البشري كله في دور الانقراض ، اذا هرمت نفسه الأدبية وتلاشت قوته الخلقية وسادت سلطة الذرّة واستفحلت قوة الجراثيم المرضية بارادة الانسان واختياره في ميدان التنازع . فهل يمكن أن ينقرض الانسان وتبقى أنواع الحيوان الأخرى ؟

الحياة تبقى على الارض ما دامت الارض صالحة لها — والانسان لا ينقرض عن الأرض الا اذا تمخضت المدنية عن انسان آخر أو حيوان آخر أقدر منه وأصلح للاجتماع . فما انقرض الدينوسور الضخم الذي كان أقدر حيوان إلا لما جاء الانسان فبزّه بحيله التي خنقت تلك الضخامة أمام هذا الذكاء ، كما ان الحيوانات الضارية تنقرض الآن من أمام وجه الانسان . فهل يمكن أن تتمخض مدنيتنا عن قوّة خارقة تبزّ هذا الذكاء البشري الحالي ؟

ماذا في الطبيعة من سر يفوق الذكاء البشري ويصرعه ويستعبده ويجعله خادماً له ، كما ان هذا الذكاء استعبد أقوى الحيوانات وطوّعها وروّضها ، بل فعل أعجب من هذا ، استعبد نواميس الطبيعة وسخّرها لخدمته .

* * *

في أوائل ظهور اينشطين بنسبيته كان المغفور له الدكتور صرّوف يحدثني ذات يوم عن غرابة هذه النظرية وهو متحير في غموضها ومخالفتها للمعقول وقال : « يقال إن في العالم الآن ١٢ عالماً فقط يفهمون النسبية » . فقلت « هناك أحد امرين . إما ان اينشطين وهؤلاء الاثني عشر من زملائه مخرّفون يصدقون المعجزات المستحيلة أو إن عقولهم تجاوزت عقول

البشر ، وكأنها دخلت في طور جديد يختلف عن طور العقل البشرى الحالي، كما أن عقل الإنسان ارتقى إلى طور يختلف عن عقل « الاوران اوتان »

فهل ياترى يتمخض الذكاء البشري عن ذكاء جديد يستلم زعامة المدنية القادمة ويكون في المملكة الحيوانية دورٌ جديد غير دور الإنسانية — فكيف يكون ذلك ؟

لا يخطر لنا إلا أن نسميه دور الالوهية .

لا أعتقد أن الجنس البشري تقرضه القنبلة الذوية ولا الجراثيم المرضية . فهو كما اخترع آلات الفتك والدمار يخترع الوسائل لاتقاء هذا الفتك، كما أنه يخترع الأدوية والعلاجات الطبية لاتقاء الأمراض . ومهما أباد الإنسان من أفراد جنسه يبقَ على وجه الأرض بقايا من البشر يستمرون بالمدنية . لاينقرض الإنسان إلاّ بانقراض الحياة كلها بتاتاً عن الأرض. فما دامت الطبيعة تقدّم للحياة عناصر بقائها وما دامت الحياة تقدم للعقل عناصر بقائه، والعقل يقدم للذكاء أسباب ذكائه. فالإنسان باقٍ والتطور مستمر والاختراع مستمر.

* * *

ماذا بقي للانسان لكي يخترعه ؟ — الذين يعيشون سيرون .

وأما القول إنه بقي للإنسان أن يصعد الى القمر ويطوف بين الاجرام فلا أعتقده، لأنه لا فائدة للانسان من أن يخاطر في الصعود إلى القمر . لا أعتقد إن الإنسان يرتكب هذه الحماقة العقيمة اللهمّ إلاّ إذا كان إنسان الغد إنسان الطور الجديد القادم يخترع الآلات التي تمكنه من هذا المستحيل او شبه المستحيل . قد يمكن الانسان الحالي ان يقذف بقذيفة تصل الى القمر ولكنه لايستطيع الصعود اليه فيها. وقد يستطيع انسان الغد ان ينجح بهذه الغزوة للقمر اذا كان قد تطوّر عقله وفاق عقلنا وأصبحنا بالنسبة اليه كأشباه الانسان بالنسبة الينا ، وإذا تطوّرت ايضاً بنيته الجسدية بحيث تحتمل الضغط ، ويتعدّل نظام التنفس والدورة الدموية الى غير ذلك .

متى يمكن ان يكون ذلك ! — بعد مليون سنة — إن شاء الله . ومن يعش يره . وماذا بعد ذلك !

اذاً يبقى سؤالنا الأول « ما هي الغاية القصوى » بلا جواب قاطع ، ويبقى هكذا الى ان يفنى الانسان بفناء الحياه برمتها، وبفناء الكرة الأرضية وسائر الأجرام، وتعود الى اصلها الأول، من الاثير والى الاثير تعود .

ن . ح

الوراثة الاجتماعية

تطغي على الوراثة الطبيعية

كنا في حفل عائلي يجمع عدداً غير قليل من كرام الناس وكرائمهم . وكان أحد أصدقائي إلى جانبي يحادثني وأنظارنا تطوف في الحضّار . فأومأت إلى فتىً جميل مترعرع يراقص فتاة حسناء وقلت لصديقي أنظر الى ذلك الفتى الذي يراقص بنت فلان .

قال : أجل .

قلت أليس هو إبن صاحبنا فلان الذي عرفتني به الآن هنا ومكث معنا برهة يحادثنا ؟

فالتفت صديقي إليّ بدهشةٍ وقال : كيف عرفت ؟ من قال لك ؟

قلت : « من يشابه أباه فما ظلم » . بينهما شبهٌ لا يخفى . هما الآن على مقربة منا ، أجل طرفك بينهما ألا ترى تشابهاً .

فحملق فيَّ وقال : نعم هو ابنه بالتبني لا بالطبيعة تبنّاه منـذ ولادته عن يد طبيب مولّـد في مستشفى . وأبواه مجهولان : حتى أن الطبيب لا يعرف الوالدة ولا اسمها ولا بنت من هي وبعد أن مضت أمه أيام نفاسها القليلة لم يعد يراها ولا عرف عنها شيئاً لأنها هربت من فضيحة ، وترجتـه أن يتصرف بالطفل كما تلهمه إنسانيته . وكان الطبيب يعرف أن صاحبنا هذا يتوق إلى تبني ولد لأن زوجته كانت عاقراً ، فعرض عليه الطفل فتبنّـاه شاكراً . وأظن أن الولد لا يعرف حتى الآن أنه ابنه بالتبني ، ولا أن أبويه مجهولان إلاَّ إذا كان أحد الفضوليين قد همس ذلك في أذنه . وقـد لا يصدق الفتى هـذا الهمس لما يراه من حب صاحبنا له ، فهل ترى حقيقيـاً أن بينهما تشابهاً .

فقلت كذا أرى ، وإن كنت أنت لا ترى فلأنك عارف أن الفتى ليس إبنه من صلبه فلا يتراءى لك الشبه كما يتراءى لي . ألا يمكن أن أم الفتى كانت خليلة سرية لصاحبنا ؟

قال : كلاَّ البتة . لأن صاحبنا هذا صديقي الحميم منذ عهد الشباب وأعرف عنه أشياء كثيرة . فلو كانت له خليلة لعرفت . فهل أنت راءٍ تشابهاً قويّـاً بين صاحبنا والغلام .

قلت . نعم وإلاَّ لمـا لفتُّ نظرك للأمر . وأما أنت فلا ترى التشابه لأنك مع عادي

الزمان ألفت رؤية الاثنين وفي مخيلتك تفاصيل ملامح كل منهما أي جزئياتها وهذه لا تتشابه إلاَّ بعض التشابه، ولكن كليات الملامح متشابهة وهي التي دلتني على النسبة بينهما لأن عهدي بهما الليلة فقط . فلا ينطبع في مخيلتي إلاَّ كليات الملامح . فأراها متشابهة لأني متأكد أنهما لا يشتركان بالدم .

فأنعم صديقي النظر في الفتى وفي أبيه ثم قال : لعلك مصيب بعض الاصابة فيما ترى . انه لأمر عجيب .

قلت لا تعجب ولا تستغرب الأمر ، لأن الوراثة الاجتماعية تطغى على الوراثة الطبيعية (البيولوجية) ولا سيما إذا كان الطفل منذ بدء حياته ينمو في حجر زوجين سواء كان ابنهما من لحمهما ودمهما، أو لم يكن لأن للعشرة تأثيراً كبيراً في ملامح الأشخاص كما أن لها تأثيراً على الأخلاق بفعل التقليد والمحاكاة . والعشرة هي إداة الوراثة الاجتماعية .

قال : ماذا تعني بالوراثة الاجتماعية . وما هو الفرق بينها وبين الوراثة الطبيعية . نحن نعرف أن الولد الأبيض يأتي من والدين أبيضين ، وإن الأسودين لايلدان إلاَّ طفلاً أسود، وحبة الحنطة لا تنتج إلاَّ سنبلة قمح ، والكلبة لاتلد سنوراً ، كذا نفهم الوراثة الطبيعية. فما هي الوراثة الاجتماعية ؟ وكيف تطغى هذه على تلك ؟

قلت : سؤالان وجيهان ، ولا سيما الثاني منهما . فاعلم يا صاحبي إن التقليد أو المحاكاة غريزة في الأحياء من أدناها إلى الانسان أعلاها . تراها في القرود مثلاً ، فالقرد الصغير يقلد أو يحاكي أمه أو سائر القرود في كل حركاتها، بل يقلد البشر أحياناً، وكذلك الحيوانات العليا وأشباه الانسان كالأوران أوطان والشمبانزي والغورلاَّ ، حتى الطيور تقلد صغارها كبارها وتحاكي بعضها بعضاً ، ولولا خلة التقليد هذه لما استطاع حيوان أن يعيش . فاذا لم يرَ العجل أمه ترعى العشب في الحقل فلا يعرف أن يرعى ولا يعيش، واذا لم يرَ العصفور أمه تنقد الحب فلا ينقده ولا يعيش . وكذلك الطفل البشري منذ يعي للدنيا يجعل يقلد أمه ثم أبويه معاً في كل ما يفعلانه منذ الحداثة إلى الرجولة .

قال : حقاً هذا ما نلاحظه . ولكني أستغرب سبب هذا التقليد أو هذه المحاكاة .

قلت : ان الحركة سنة من سنن الحياة بل هي أهمها . والحركة في الأحياء ولاسيما العلياء وفي الانسان وأشباهه تتوقف على تحرك العضلات بإيعاز الأعصاب . وما دامت عضلات الصغار مماثلة لعضلات الكبار تمام المماثلة فحركات أعضاء الصغار لا يمكن أن تكون إلاَّ مماثلة لحركات أعضاء الكبار. وإذا كانت الطاقة البدنية في كل حي لا بدَّ ان تصرف في سبيل نفع الحي فلا بدَّ ان تجري على أيدي العضلات التي تحرك الأعضاء . فالفرخ الذي لا بدَّ له

ان يصرّف طاقته في تناول الغذاء لا يجد منفذاً لهذه الطاقة إلاَّ في منقاره قبل كل شيء. وإذ يرى أمه تنقر الحب يرى أن منقاره يطاوعه في محاكاة أمه في نقر الحب ولا يجد صعوبة للفوز بمحاكاة أمه . ولكنه لا يرى منقاره يطاوعه في التهام الطعام إذا رأى هرَّةً أو كلبةً تلتهم الطعام، لأن عضلات منقاره لا تطاوعه على الالتهام ، فعضلات منقاره تطاوعه في تقليد أمه ولا تطاوعه في تقليد الهرَّة أو الكلبة .

فالتقليد أو المحاكاة تتوقف على عضلات الأعضاء القائمة بعملية المحاكاة .

وهكذا الطفل البشري منذ يشرع يعي ويفهم يشرع يقلد أمه في حركاتها، ثم يشرع يقلد أباه وأخاه في حركاتهما أيضاً ، لأن عضلات يديه ورجليه ووجهه وعنقه وكتفيه الخ من طراز عضلاتهم . فاذا تحرَّك عضو فيه تحرك بحكم طبيعة تكوينه كحركاتهم تماماً ،فيمشي كما يمشون ويحرّك ساعديه كما يحرّكون ، وهكذا دواليك .

أما وقد علمت سر خلة المحاكاة في الحيوانات ولاسيما العليا صار في وسعك أن توافقني على أن الطفل أو الغلام أو الفتى يكتسب ملامح من ربياه سواء كان ابنهما الطبيعي أو بالتبني، لأنه يقلدهما في جميع حركاتهما . وأول ما يقلده فيهما هو النطق، فمنذ السنة الثانية يبتدىء يلفظ الكلمات التي يسمعها منهما وهما يكرران نطقها لكي يقلدهما فيحسنه . فان كان عربيًّا نطق الأحرف التي يتعذر على بعض الأجانب نطقها كالحاء والخاء والعين والغين. لأن عضلات فكيه وحلقه وحنجرته تتكيف حسب نطق هذه الأحرف . ثم انها تتكيف لنطق ألفاظ اللغة جميعاً ولا يلبث أن يملك معظم كلمات اللغة فيتكلمها بلهجة والديه أو من يحتضنه ويربيه .

ولما كانت عضلات الفكين والحنجرة متصلة بعضلات الذقن والخدين والعنق الخ فلا بدَّ أن تتكيف السحنة بتكيف هذه العضلات . ولما كان لكل إنسان لهجة خاصة في النطق ونبرات الصوت ونغماته لم يكن بد من تأثير هذه في العضلات ، وبالتالي في سحنة الوجه وقسماته الخ . فلا تستغرب اذاً اذا شابه الغلام حاضنيه في قسماتهما وسيمائهما . ولو ظهر الآن والدا هذا الطفل الطبيعي لما رأيت ملامحه تشابه ملامحهما أكثر مما تشابه ملامح صاحبنا هذا وزوجته .

ولو جئنا بطفل أجنبي قل — صينيًّا مثلاً — وربيناه بيننا الى أن صار غلاماً ثم شابًّا لرأيناه يختلف سحنة عن بني قومه ولو بعض الاختلاف ، ولرأيت فيه كثيراً من ملامح القوم الذين ربي بينهم . ولا ريب أنه يتكلم لغتهم بنبراتها ولهجتها ويلفظ الأحرف التي تختص اللغة بها .

ثم هناك حركات عضلية غير حركات نطق الحروف . هناك الضحك والبكاء والصخب والغضب والمصارعة . ولكل هذه تأثير في ملامح الوجه . ولا يخفى عليك أن ضحكات الناس تختلف باختلاف الوجوه . يكاد يكون لكل شخص ضحكة ، كما أن لكل شخص بصمة أصبع . وكذلك لكل شخص نغمة في الكلام ، حتى انك اذا سمعت شخصاً يتكلم وأنت لا تراه عرفت من هو إذا كان من معارفك وتعوّدت أن تسمعه .

ولا ريب أن الانسان يكتسب شكل الضحكة ونغمة الكلام ممن ربوه .

وهناك حركات للمشي تقتبس من حركات مشي المربين . لاحظ فتانا هذا انه يمشي مشية الخيزلى فيتمايل قليلاً ، ثم لاحظ مشية أبيه أيضاً ، تر أن تلك نسخة ثانية من هذه . ولاحظ أيضاً أن كتفيه ترتفعان ككتفي ابيه لأنه يقلد أباه في المشي وفي حركة الذراعين والكتفين والوركين ، فصارت هذه خلقة فيه .

واذا جئت تدرس جميع حركاته الدقيقة وحركات أبيه رأيت كل حركة له نسخة من مقابلها من حركات أبيه

لذلك ترى يا صاحبي ان جميع عاداتنا وأزيائنا ولغتنا وعقائدنا إنما هي صنيعة الوراثة الاجتماعية التي نتوارثها بحكم التقليد والمحاكاة . ثم سألت صديقي .

يا ترى هل عقيلة صاحبنا موجودة في هذا الحفل .

قال : رحمها الله ماتت منذ عشر سنوات وكانت عاقراً فاضطرّ صاحبنا أن يتبنى هذا الفتى في حياتها ، ولم يشأ أن يتزوج أخرى لأنه يخشى أن تجافي الزوجة الثانية الفتى لأنها ليست والدته ، وهو يحبه حباً جمّاً .

فقلت — أرأيت كيف تؤثر العشرة في الأخلاق حتى في القلب ، والعاطفة . ولو رزق صاحبنا ولداً من زوجته لما أحبه أكثر من حبه لهذا الفتى .

لو كانت زوجته في قيد الحياة الآن لكنت ترى بين الزوجين تشابهاً أيضاً في السحنة والقسمات فضلاً عن سائر الحركات البدنية ، لأن عشرة عشرين سنة تطبع الزوجين في طابع واحد للاسباب التي قدمتها لك . يمكنك أن تنعم النظر في ملامح أي زوجين قديمين في الزوجية من بين الآخرين هنا الآن فترى ما يؤكد لك هذا الأمر .

ترى ذلك جيداً في الأخوة الذين يعيشون في بيت واحد ، ويندر أن تجد أحداً منهم يختلف عن اخوته في السحنة والحركات

قال هذا طبيعي لأنهم بنو أبوين انفسهما .

قلت : ليس كل تشابه راجعاً الى الوراثة الطبيعية البيولوجية وانما بعضه عائد الى

العشرة. لو كان أحد البنين قد فارق اخوته منذ طفولته زمناً طويلاً ثم عاد اليهم لرأيته يختلف عنهم اختلافاً ظاهراً في سيمائه وحركاته ونبرات صوته ولهجته.

ومجمل ما أريد أن أقوله ان ملامح الانسان جميعاً حتى حركات أعضائه نتيجة حركات عضلاته — عضلات وجهه وفمه وحنجرته وعنقه وحركات يديه وساقيه وقدميه الخ — . وهذه نتيجة محاكاة الانسان في جميع حركاته لحركات ذويه الذين يعاشرهم مدة طويلة وعلى الأخص والديه.

فالوراثة الاجتماعية تشاطر الوراثة الطبيعية في تكوين ظواهر الفرد من سيماء وملامح والخ ولكنها تستقل عنها في تكوين حياة القوم الاجتماعية. وهي سر اختصاص كل قوم بلغته وعقائده وعاداته وأزيائه وبها يختلف قوم عن قوم وشعب عن شعب وأمة عن أمة كما هو معلوم.

فترى أن لقوة التقليد أو المحاكاة تأثيراً عظيماً في شخصية الفرد كما في شخصية الجماعة وهي سر القدوة. والقدوة هي العامل الأقوى في التربية الأخلاقية. ولذلك يجب أن ينتبه الوالدان لسلوكهما أمام أولادهما

ن. ح

بعض مفاخر الاميركان

المغفور له حافظ ابرهيم

أي رجال الدنيا الجديدة مهلاً   قد شأوتم بالمعجزات الرجالا
وفهمتم معنى الحياة فأرصد   تم عليها لكل نقص كمالا
وحرصتم على العقول فخرّمـ   ـتم عصيراً يراه قوم حلالا
وقدرتم دقيقة العمر حرصاً   وسواكم لا يقدّر الأجيالا
كم أحالوا على غدٍ كل امرٍ   والمحيل الأمور يبغي المحالا
قد تحديتمُ المنية حتى   همَّ أن يغلب البقاء الزوالا
وطويتم فراسخ الأرض طيًّا   ومشيتم على الهواء اختيالا
ثمَّ سخرتم الرياح فسستم   حيث شئتم جنوبها والشمالا
تسرجون الهواء إن رمتم السـير وفي الأرض من يشدُّ الرحالا
وتخذتم موج الأثير بريداً   حين خلتم أن البروق كسالى
ثمَّ حاولتم الكلام مع النجم   فمهدتم الشعاع مقالا
وأقمتم في كل أرض صروحاً   تنطح السحب شامخات طوالا

الضمان الجماعي

كيف ينفَّذ

الضمان الجماعي (بفتح الجيم نسبة الى الجماعة) أهم مشروع قررته الجامعة العربية في تاريخ حياتها . وقد تواتر الى الآذان والأذهان انه لولا إصرار جلالة الملك فاروق والحاحه ما اتفق أعضاء الجامعة عليه وقرروه بالاجماع . كما أن الجامعة نفسها لم تنشأ لولا مساعي جلالته، فجلالته هو طاقة (قوة) الجامعة أولاً وآخراً .

ولا نرى مبرراً لتردُّد أي واحد من الوفود في الموافقة على المشروع لأنه من مصلحة كل دولة عربية ، إلاَّ إذا كان لأحد مصلحة شخصية في رفضه .

واني لأعلم أن لبعض الزعماء أو أكابر الساسة مصالح في خنق هذا المشروع في مهده. واذا لم يكن ثمت ريب في ضرورة المشروع لسلامة الأمم العربية ، فأي سعي ضده يعد جناية عظمى .

وبكل أسف ان بين زعماء العرب وكبرائهم خونة لا يتورعون أن يأتوا بالأذى للعرب

وإذا كانت معظم دول أوربا قد ألفت فيما بينها ضماناً جماعيًّا كهذا وانتخبت احدى عشر دولة برلماناً أوربيًّا لكي يضمن سلامتها ، فالدول العربية السبع أحرى من دول أوربا بأن تؤلف برلماناً يحرص على سلامتها . لأنها جميعاً لا تساوي دولة أوربية في الاستعداد للدفاع عن النفس . والعرب الآن في أشد الحاجة الى التعاون في الدفاع عن أنفسها، ولاسيما في هذا الزمن الذي يضطرب العالم فيه أي اضطراب لأن سلامه مهدد بحرب شعواء قد يكون فيها للعالم الفناء ، فالأمم العربية مهددة من الخارج بهذا الخطر العام الهائل ، ومن الداخل مهددة بالصهيونية الواقفة بالمرصاد متحينة الفرص للهجوم على البلاد العربية والتوسع على حسابها . وكفى هذا خطراً على العرب وهو خطر على الأبواب يستوجب تنفيذ مشروع الضمان الجماعي بأسرع ما يستطاع .

وقد علمنا ان الجامعة انتخبت لجنة للبحث في تنفيذ المشروع ، وصار الأمر معلقاً بعاتق هذه اللجنة التي أصبحت مسؤولة عن أي ضرر ينجم عن اهمالها . ونظنها الآن في حاجة الى آراء المفكرين في كيفية التنفيذ . ولذلك أرى الفرصة مناسبة عندي للادلاء بآرائي، لأني منذ ظهرت الخيبة علينا في حرب اسرائيل شرعت أكتب في هذا الموضوع فكتبت في الجرائد المختلفة نحو ٩ مقالات فيه . ولدولة فارس بك الخوري عميد سوريا صرخات فيه عن يد بعض مراسلي الصحف .

* * *

المشروع أعظم وأضخم مما يتراءى للجماعة . فهو يشبه من نواح مختلفة الاتحاد الفدرالي على طراز اتحاد اميركا وسويسرا وغيرهما . وإذا لم يكن من هذا الطراز فلا خير فيه .

يجب أن تؤلف من الأمم العربية هيئة عمومية تسمى « هيئة العروبة العليا » ولا بأس أن تسمى « البرلمان العربي العام » .

لا تعين الحكومات المندوبين لهذه الهيئة بل يجب أن ينتخب كل شعب من الشعوب العربية مندوبيه بنسبة تعداد نفوسه من كل مليون نسمة مندوب أو مندوبان . فتكون الهيئة مؤلفة من نحو ٣٥ مندوباً أو مضاعف هذا العدد .

والقصد من أن الشعب ينتخب ،لا أن الحكومة، تعين ان تكون هذه الهيئة أو هذا البرلمان مستقلا تمام الاستقلال عن الحكومات ولا تكون للحكومات سلطة عليه . ولكن اذا كانت كل حكومة تعين مندوبها فيأتي المندوب الى البرلمان وهو يحمل مطالب دولته الخاصة ويغلب أن يوجه سعيه الى منافعه الشخصية . وفي هذه الحالة لا يكون ممثلاً الأمة العربية برمتها ولا يكترث دائماً بما يقتضيه الضمان الجماعي من التعاون والتعاضد والتناصر، على أن الهيئة العربية العليا يجب ألاّ تفكر إلاّ بمصلحة الجماعة والدفاع عنها . وإذا كان كل مندوب خاضعاً لسلطان حكومته لا يبقى للهيئة استقلال ولا حرية . وفي هذه الحالة تتقلقل الهيئة ولا تستطيع أن تفعل أمراً اجماليـًّا نافعاً للجماعة

وإذا كانت الحكومات مخلصة لهذا الضمان الجماعي تسمح بعملية انتخاب الشعب للبرلمان العربي تحت إشراف لجنة تعينها الحكومة لأول مرة ، وبعد ذلك يعينها البرلمان نفسه . ويعطى فيها للمتعلمين فقط حق الانتخاب، وللمثقفين ثقافة عالية أن يرشحوا أنفسهم ولا يعطى حق الترشيح لأصحاب الأملاك أو الأغنياء ذوي النفوذ . وإنما يجوز ترشيح الأشخاص الذين عركوا السياسة من أي طبقة .

متى تكوّن هذا البرلمان من الفئات التي أشرت اليها وكان أعضاؤه يعتقدون أنه برلمان لاسلطان لحكومة عليه ، وشعر أنه صاحب الحرية المطلقة، وإن أزمّة مصالح البلاد ارت في يده، وإنه مسؤول عنها انتخب هيئة أركان حرب عليا مختلطة حسبما يتراءى له، من ر نظر الى الهيئات العربية المتحالفة ثم يعين قائداً أعلى للجيش .

ومتى تمّ ذلك شرعت أركان الحرب تجنّد من كل أمة عربية عدداً من الجنود بنسبة دادها . فاذا جنّدت خمسة بالمئة من كل أمة أمكنها أن تجند نحو مليون ونصف جندي ما هو بالقدر الكثير بالنسبة لسائر الدول . وإذا كانت تركيا مجندة نحو مليون جندي تعجز الأمم العربية أن تقدم للدفاع هذا المليون، وهي أكثر من ضعفي تركيا نفوساً . ذلك لا نطلب منها في أول الأمر أن تجند أكثر من ربع مليون ، على نية أنها في حوال الحرجة تجند أكثر جدًّا ، حتى المليونين أو أكثر.

* * *

هذا الجيش العظيم يكون تحت سلطة أركان الحرب المطلقة. وليس لأية حكومة عربية سلطة عليه البتة . ولهيئة الأركان أن تضعه حيثما تشاء وتحركه كيفما تشاء أو أن تحرك حداته حسب مقتضى الحال . وحينئذٍ لا يبقى لزوم للجيوش المحلية إلاّ بقدر حاجة البلاد الأمن المحلي .

وهو معلوم أن البرلمان وعليه هذه المهام الجسيمة يحتاج إلى نفقات باهظة . وبالطبع فانه يجبى من جميع الدول العربية بنسبة تعداد نفوسها . فلا يتعذر عليه أن يجبي لأول نحو ٤٠ مليون جنيه . أو أقل أو أكثر حسب الاقتضاء . وإذا كانت تركيا تنفق على يون جندي، وهي لا تعد أكثر من ١٤ مليون نفس، فالأمم العربية لا تعجز عن الانفاق ربع المليون . وإذا كانت انكلترا وهي لا تعد أكثر من الأمم العربية كثيراً تنفق على اع مليوني جنيه كل يوم في حالة السلم الآن، فلا يتعذر على العرب أن يدفعوا للدفاع عن سهم هذا المبلغ في الشهر لا في اليوم .

وما دامت البلاد العربية كلها مهددة بخطر عاجل فيجب عليها أن تسخو للدفاع عن ها . وهو لا يكلف الفرد الواحد أكثر من جنيه واحد في العام .

فإذا تنظم البرلمان العربي الأعلى على هذا النحو لا تعود اسرائيل الملفقة الطاغية المعتدية ر أن تقحم خطوة واحدة الى حدود أي دولة عربية بل يمكن أن تنحسر ضمن حدودها

وتنكمش دائرتها حتى تختنق فيها . وإذا أطبقت عليها الجيوش العربية من كل ناحية قضت عليها في هجمة واحدة .

ومهما استعدَّ بنو اسرائيل للقاء العرب فلا يستطيعون أن يجندوا العدد الذي يجنده العرب، ولا يجدون في جنديتهم الحماسة التي عند العرب ولا الشجاعة التي للعرب كما هو معلوم، حتى ولو اجتمع كل بني اسرائيل الذين في العالم في فلسطين وهم على قولهم لا يزيدون على ١٥ مليوناً في كل العالم .

* * *

بقي أن دويلة اسرائيل تقول إنها تبز العرب في اقتناء السلاح . والسلاح في هذا العصر هو القوة الأولى للحرب . والبرلمان العربي يفهم هذا جيداً ، فلا يغفل عن اقتناء معامل للسلاح ينصبها في كل بلد ويشغلها بكل همة واجتهاد، فيمون الجيش بالسلاح من مدافع ثقيلة وخفيفة وقنابل متنوعة وطائرات من كل طراز ودبابات من كل نوع أيضاً وعربات مختلفة بحسب مقتضى الحال .

وأظن هذه المعامل تستطيع في سنة واحدة أن تموّن الجيش تموينا كافياً لسحق العدو في أول جولة حربية .

إذا لم يُنفذ العرب الضمان الجماعي على هذا النحو عاجلاً فالصهيونيون لا يمهلونهم إلى أن يستعدوا .

بقي أمر آخر على الضمان الجماعي أن يفعله وهو تنظيم المقاطعة اليهودية بحيث يتعذر على اليهود أن يعيشوا في وسط عالم عربي يحيط بهم من كل جنب . وإذا نظمها البرلمان العربي أمكنه أن ينفذها بما له من قوة عسكرية وسلاح، وله أن يسن قانوناً للمقاطعة صارماً بحيث أن الاخلال بهذا القانون يستوجب العقوبات الصارمة .

يكون البرلمان العربي الأعلى في أول الأمر حربيًّا فقط لأجل الدفاع عن كل دولة أجنبية تغزو دولة عربية . فاذا نجح أمكن حينئذ أن تنفذه الدول العربية كلها أو تجعله اتحاداً فدراليًّا تامًّا كالاتحاد الأميركي وأمثاله وحينئذٍ تتكوّن الأمبراطورية العربية التي هي حلم كل عربي . وهذا الاتحاد الفدرالي لا ينقض أنواع الحكم التي لكل دولة وحدها كحكومات ذاتية مستقلة بعضها عن بعض مَن ملكية أو جمهورية

الشاعر السامي

رثاء الشاعر المطبوع الدكتور احمد زكي ابو شادي لامام المجددين خليل مطران بك ألقيت في حفلة تأبينه بنيويورك يوم ١٠ أغسطس ١٩٤٩

إلهةَ الشعر ! عادَ الشاعرُ السامي   إلى عوالمَ لم تُحْصَرْ بأجرامِ
إلى عوالمَ غنّاها وأسكرَها   كأنَّ أضواءَها أصداءُ أنغامِ
إلى نُهىً لم تُكيَّفْ في منازِلها   ولم تُحدَّدْ بأنفاسٍ وأجسامِ
إلى مَنابعَ للإلهامِ صافية   فاضتْ على الشمسِ والدنيا بأقسامِ
الأنبياءُ الى عَليائها انتسبوا   والشاعريةُ في وحْيٍ وإلهامِ
الى مَناركِ ، فاستعلتْ كواكبُه   ونحن في وَهْدَةٍ هانتْ وإظلامِ
تَدورُ لا مُلْجِمٌ يُمْلي مسارَبها   ونحن ما بين إسراجٍ وإلجامِ
وتَبعثُ الشِّعْرَ في خَفْقِ أشعتُها   جَمَّ الفصاحةِ إنْ يُوصفْ بإبهامِ !

* * *

إلهةَ الشّعر !... عاد الشاعرالسامي   إلى عوالمَ لم تُحْصَرْ بأجْرامِ

لم ينزعْ الموتُ إكليلاً خَصصْتِ به   ذاكَ الجبينَ ، ولم يَظفرْ بإغنامِ
وإنْ يكنْ قد أثارَ الهوْلَ في مُهجٍ   وبَعْثَرَ الزّهرَ مِنْ باكٍ ومِنْ دامِ
أُسْري به في بُرُوجٍ لا كواكبُنا   تَدري مَدَاها، ولا أربابُ أحْلامِ
وخلّفَ الفَنَّ مكبوتاً على وجلٍ   ألمْ يُرزَّأ بفقد الكوكب (الرامي) ؟
طارَ النَّعِيُّ ، وبئسَ الطيرُ روَّعنا   وهو الجريحُ بأحزاني وآلامي
ألْقى علينا الأسى ثُكلاً ومسْغبةً   مُبَدِّداً ذُخْرَ آمالي وأحلامي
زادَ الهجيرَ لهيباً فرْطُ حُرْقَتِنا   أليس حُرْقَتُنا أنفاسَ أيتامِ ؟
كأنما لم يَمُتْ قبلاً بعلّتِهِ   الفاتحون لدوُلاتٍ وأفهامِ
كأنما عيشُه حامٍ لِفِكْرَتِهِمْ   والفكْرُ ليس له كالفكْرِ مِنْ حامِ
ما أفدَحَ الخطْبَ للعانينَ، ما نمموا   فكلُّ جُرْحٍ جديدٍ غيرُ مُلْتامِ
وما أشقَّ المآسي للشُّعوب متى   تُدُووِلَتْ بين إحياءٍ وإعدامِ !

* * *

هلْ يعلمُ الناسُ أيَّ الناسِ قد فَقدُوا   أم لا يزالون في نَوْمٍ وأوْهامِ ؟
وهل بكت (بردى) والنيل واضطربا   (كالأرْزِ) من نوْحِ أعلامٍ وأعلامِ ؟
أصالةٌ من جلالٍ ليس يرفعُه   عالٍ من المدْحِ أو دانٍ من الهامِ
مَنْ سايرَ النهضةَ الكبرى وهذّبها   بالفنّ والرأي أعواماً بأعوامِ ؟
وما تَردَّدَ في تكييف مَبْدئهِ   ولا تَذَبْذَبَ في نَقْضٍ وإبرامِ
ولا تَلَعْثَم يوماً في رسالتهِ   ولا تَعَثّر في تحطيمِ أصنامِ

كأنما رُشدُهُ الصَّمْصامُ في فَرَقٍ   وشِعْرُهُ بُرْءٌ فأفاه وتمتامِ
أجزتْ شجاعته الأحرار عن خدعٍ   في عالمٍ زاخرٍ باللُّؤمِ لوّامِ
وفاض شُؤْبُوبُه رِيّاً لمن عشقوا   أنفاسَ (طيبةَ) أو ألحاظَ آرامِ
وأشْرفتْ (بعلبكٌّ) مِنْ خرائبها   عرائسَ المجدِ في (لُبنانَ) و(الشامِ)
ألبستها حُللاً ما نالَ مُشْرِقُها   أعراسُ (كسرى) ولا أفراحُ (بهرامِ)
ما (البحتريُّ) من الإيوان موقفُه   وأنتَ في (بعلبكّ) العابدُ السامي؟
منازلٌ لك لم يَنزلْ بساحتها   الاّ النبوغُ، فما هانتْ لأقوامِ
شعرٌ تَشرَّبه الأرواحُ صافيةً   وتستقلُّ به، لا نظمُ نظّامِ
وشاعرٌ لم يُعهَدْ قبله بهدًى   مثل (المسيح) أتى من بعدِ إظلامِ
جمُّ المروءةِ، وافي الخُلقِ، ذمّته   ليستْ مطيةَ أحبابٍ وأخصامِ
يغدو اليه ذوو الحاجاتِ في لهفٍ   ويَنثنون وكلٌّ جدُّ مبسامِ
وما تعاظمَ يوماً في تفوّقه   بل في تواضعهِ آياتُ إعظامِ
كانت زعامته رُكناً يلاذُ به   دونَ ادّعاء لأحزابٍ وأحزامِ
كالنُّورِ ليس لأرضٍ أنْ تخصَّ به   ولن يُقاسَ بأبعادٍ وأرقامِ!
قد ضنَّ بالفنِّ إلاّ للبصير به   كالكنز خبئَ في حرزٍ بأختامِ
وصان تفكيره عن عرضٍ مبتذَلٍ   كأنما هو حصنٌ بين آطامِ
والفكرُ كالدِّينِ حيٌّ في قداسته   ملء العصور بآياتٍ وآرامِ (١)
لا كالخرائبِ والأطلالِ يسكنها   شبْحُ الفناء وتستخذي لأبوامِ

---

(١) الآرام: النصب التي يستهدى بها

ما عزَّتْ أُمةٌ أودتْ بعزَّته   ولا اغتدتْ دونه في عدِّ آنامِ
إذا تهاونَ شعبٌ في كرامته   عزَّ الأديم عليه عند أدَّامِ
وإنْ أُسيءَ الى الآسي يعالجهُ   لم يرأمْ الجرحُ أو يُنقذ بإرآمِ (١)
ما حاربتْ أُمة أخيارها ونجت   أو أودعتْ أمرها أوهامَ رجَّامِ
هذا هو الخالدُ الموهوبُ أرفعه   عن أن يشيرَ اليه أيُّ إبهامِ !

***

قَنعتُ بالحظ في النجوى ، ومرتقبي   نُعمَى حنانكَ في عَودي وإكرامي
يا من أَباخ له قلبي فهذَّبني   طفلاً وكهلاً ، وأحيا كلَّ أيامي
يا مَنْ سكنتُ اليهِ العمرَ ملتجأً   ضافي العزاء ، فلم أعبأْ بأخصامي
صحبته في خيالاتي ، وفي مُثُلي   وفي حياتي ، وفي سعيي وإقدامي
ولم يزلْ . . ما لهذا الموت يعصف بي   كما يبعثرُ تأويلي وأحكامي ؟
وما لِبرهةِ عامٍ كنتُ أرقبها   حالتْ أُبوداً وردَّتني لإجرامي ؟
أوْلى به ساعةً تنكيس أرؤسنا   حزناً عليه ، وتنكيسٌ لأعلامِ
لا أن تخفَّضَ للطاغوتِ صاغرةً   أو أن تطأطئ في بؤسٍ وإعدامِ
لئن تجردَ عن ألقابِ مملكةٍ   زانتْ جَباناً وما كانت لمقدامِ
فالذئب يمرح في ثوبٍ لسيّده   وما يُبدّل غُنماً ثوبُ ضرغامِ !

***

---

(١) الإرآم : معالجة الجرح .

لم يبقَ لي من عزاء غيرُ ما وهبتْ   عيناكَ للخلدِ من آياتِ رسّامِ
ومنْ مزاميرَ جلّتْ في ترسُّلها   وفي تسلسُلها عن أيّ إدغامِ
ومنْ تسابيحَ مطرانٍ أردّدُها   كأنما هي من أركان إسلامي
ومن أغاريدَ للعشّاقِ أرشفُها   راحَ الشبابِ فأنسى جدبَ أيامي
ما الراحُ في الخلدِ موعوداً بها أدبي   أرضى بجاماتها عن هذه الجامِ
ومن أهازيجَ في معنىً وفي صوَرٍ   هي (الطبيعة) في روحي وإلهامي
ومن عظاتٍ وأمثالٍ وفلسفةٍ   جاءتْ أناجيلَ فوق المدح والذامِ
ومنْ تهاويلَ للتاريخ تسردها   فنلمحُ الدّهر أحقاباً بأيامِ
ومن صنائعَ للمعروفِ سابغةٍ   ساوَتْ ببرٍّ لمخدومٍ وخدّامِ
ومن أحاديثَ مجّ الشهدَ مُبدعها   وإن توارتْ بأزهارٍ وأكمامِ
تنمُّ عن عبقريٍّ الفن معجزةً   والفن كالحب يحيا جدَّ نمّامِ
ولا أنيس سوى الذكرى لصحبتنا   وكم تثورُ على يأسي وإحجامي !

***

رحلتَ في زمن عزّ الحكيمُ به   والسائس الحرُّ، بلْهَ الشاعر السامي
عن أمة حظُّها الشكوى بلا خطرٍ   فما تثورُ على أسواطِ ظلامِ
يخشى أفاضلُها الأوغادُ إن سعلوا   ويركعون لأغرارٍ وأوغامِ
ويسخطون على مثلي ليقظتهِ   إذ يمدحون، ويبكي الشانئ الرّامي !
لا يستقرُّون من روعٍ ومن قلقٍ   ولا يُلبُّونَ حتى عزمَ همّامِ

إذا أردنا لها استقلالها نفرتْ   وما كرامةُ ذي عَوزٍ لقوّامِ ؟
كأنما نسيتْ تاريخَ عزّتها   ولم تُطوّفْ بأهرامٍ وأهرامِ !
قالوا: قطيع من الأغنامِ يُشبهها!   يا ليتها كقطيع بين أغنامِ !
يصطادُ أرزاقها منْ لا أكيّفهمْ   وتستباحُ رُكوباً عند إجرامِ
ولا يقوّمها نصحٌ ، ولا عبرٌ   ولا سَدادٌ ، وتهوى لهْوَ هدّامِ
كم خودعت وصروفُ الدهر ضاحكةٌ   فخلّطتْ بين أحبابٍ وأخصامِ
ما بارِمُ الحبلِ في أعوادِ مَشنقةٍ   كرافع لبنودِ النّصر بَرّامِ
فأثخنتْها جراحاتٌ بلا عَددٍ   وأسلمتها لزلّاتٍ وأسقامِ
وما ينال وفيٌّ حين يُرشدُها   إلاّ العقابَ وإلاّ وطءَ أقدامِ
الهزْلُ مازالَ مِنْ أسْمى شعائرها   والجهل معبودَها في ملكْه النامي
أحرارها غرباءٌ لا تميّزُهم   في حين تَعْنُو لأوشابٍ وأعجامِ
لم تَتّعظْ وصرُوفُ الدهر تلْطمُها   ولم تَزَلْ رهْنَ أنصابٍ وأزلامِ
وتقْتُلُ الوقت إسفافاً ومَنقصةً   وثأرُها عند بطريقٍ وحاخامِ
ولم أزَلْ وأنا العاني بخدمتها   شبيهها في ضلالاتي وإيهامي
أحْنُو عليها وإنْ جارَتْ على أدبي   وعاقبتْني على برّي وإنعامي
وطاردَتْني إلى منفايَ جانيةً   وعدّدَتْ صَفْوَ آثاري كآثامِ !

* * *

مَنْ لي بقربكَ حيًّا ذائداً مِقةَ   عنّى ، وحارسَ وجدانٍ وأقلامِ
يؤرّخُ الأدب العالي بسيرتهِ   وباسمهِ يهتفُ الوافي بأقسامِ ؟

لِيبكِ مِن صفوةِ الأحرارِ مَنْ عرفوا   مَنْ أنتَ واعترفوا من بحرك الطامي
ومَنْ أبَوْا أن يُعدُّوا في محبتهم   بين المغالين ، لو قِيسُوا بمستامِ
ومَن يُفدُّون أوطاناً نفختَ بها   رُوحَ الإباء فلم تُذعِنْ لهوّامِ
إنْ كانت اليومَ نهْباً بعد تضحيةٍ   فلن تُسام دواماً سَوْمَ أنعامِ !

* * *

عَسَى الرياضَ التي ناجيتَها شغفاً   تَبوحُ بالوحْي للسّاعي وللظّامي
عَسَى الرّياحَ التي شاقتك ثائرةً   تفكُّ عنّيَ أغلالي وإرغامي
عَسَى الهديرَ على الأمواجِ ينفحُنا   بلحنِكَ الحُرِّ لم يُقرَنْ بإعجامِ
عسى ترانيمَ هذا الطَّلِّ تمنحُنا   فرائداً منكَ في شُؤبوبه الهامي
عَسَى المساءَ الذي غنّيتَه صُوراً   من الجمال يُغذّي حُلْوَ أنغامي
عَسَى الجداولَ في أبهى وداعتِها   تسيلُ منك حناناً حولَ آكامِ
عسى المروجَ وراعي النحل يلثُمها   ترفُّ بالشهدِ عطفاً بعد إجهامِ
عسى (الطبيعة) في أسْنى مفاتنها   تجودُ لي بسناء منكَ بسّامِ !
أنّى تأمّلتُ في حُسْنٍ أهيمُ به   رأيتُ لُطفكَ في ذهني وتهيامي
في نشقة العطر ، أو في النور مختلجاً   في ثورة البحْر ، أو في روْع آجامِ
وفي مَشاهِدَ لا تُحصى دقائقها   أنتَ وغنّتْ على مِزْمارِ غنّامِ
وتحت كلِّ عُشْبٍ في تصوّفهِ   كأننا أهلُ أشواقٍ وأرحامِ
أُزْجي رثائي صلاةً أنت مُلهِمُها   وإنْ تكنْ مِنْ حنايا قلبيَ الدامي !

احمد زكى أبو شادى

حجة فلسطين

ومن ذا الذي كتبها لليهود ؟

—٢—

والحمد لله إنهم لا ينسبون هذه الأوامر والأفعال إلى الله ، بل إلى الرب إلـه اسرائيل . وفي كل موقعة تقول التوراة : قال الرب ليشوع (مثلاً) خذ معك رجال الحرب واصعد إلى عاي . قد دفعت الى يدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه . فاقتلوا كل من في المدينة كل رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . وكانوا يفعلون أكثر من هذا فكانوا يعلقون الملوك ويفظعون فيهم ثم يحرقون المدينـة فلا تبق إلاّ أنقاضاً وخراباً يباباً .

فلا بدع أن يفعل الصهيونيون في هـذا الزمن في دير يسين وطبريا وغيرها كما فعل أجـدادهم في زمن يشوع وهم يستحلون هـذا التفظع لأنه كان بأمر الرب إلـه اسرائيل . وكل ما يفعلونه من الفظائع والشرور محلل لهم ما دام بأمر الرب إلـه اسرائيل . هذه هي خطتهم من ذلك العهد إلى اليـوم وإلى الأبد وستظل الانسانية تقاسي منهم إلى أن يبيدوا عن آخرهم لأن الله (رب اسرائيل) الله رب العالمين لا يسمح بدوام الشر إلى الأبد فلا بد إن ينقذ الانسانية منهم .

ولما شاخ يشوع قال له الرب أنت قد شخت وتقدمت في الأيام وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك : كل دائرة الفاسطينيين وكل الجشوريين من الشجور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون . وهنا جعل الرب يعدّ له المدن والأقوام التي يسلمها الى شعب اسرائيل ويطرد أهلها من أمامهم وهي كثيرة حتى جبل جرمون (جبل الشيخ) حتى لبنـان وحماة وأخيراً مملكة سيحون بين النهرين (العراق) . (أنظر الاصحاح الرابع عشر من سفر يشوع)

ويهود اليوم لا يقنعون بهذه بل هم تشرئب أعناقهم إلى آسيا كلهـا وأوروبا وأميركا

إلى سائر الشرق والغرب . ولكن ستكون قبورهم في جميع ممالك الشرق والغرب إلى أن ينطفي ذكرهم . هم الآن ١٥ مليوناً (ليسوا كنجوم السماء وتراب الأرض كما وعد ربهم ابراهيم) في وسط ألفي مليون. فسؤددهم على هذه الملايين حلم يفرحون به اليوم ويبكون غداً

كل هذا كتبه اليهود القدماء في أسفارهم بعد رجوعهم من سبي بابل أي بعد نحو ستة قرون من خروجهم من مصر . ولكن لا موسى كتب ولا يشوع دوّن . إن موسى ويشوع إذا كانا قد وُجدا هما أبرياء من أكاذيب اليهود الذين عادوا من السبي .

منذ ذلك الحين أي منذ خمسة قرون قبل المسيح صار لليهود كتاب يسمونه التوراة ، وقبل ذلك لم يكن لهم (حتى ولا لغيرهم) كتاب . وقد لفقوا فيه من المخازي ما لا يرضى عنه إله ولا انسان .

وأما ما في التوراة من الأسفار المقدسة حقيقة كأمثال سليمان الحكيم والجامعة ومزامير داود وسفر أيوب وغيرها مما يجب أن يتعظ به الناس فقد كتب أكثرها بعد ذلك الحين بزمن في مدة نحو ٤ الى ٦ قرون قبل الميلاد المسيحي . وجميع تلك القرون السابقة لم يكتب فيها شيء صالح ، على أن كتبة التوراة الأولين كانوا يلفقون حسبما تقتضي أغراضهم الشريرة من تسويغ التقطيع وتحليل السلب والنهب وانما كانوا ينسبونه إلى رب اسرائيل لكي تكون حجتهم فيه شرعية . ولكن الله رب العالمين ليس معه خبر مما يأفكون .

وأما أخبارهم القديمة من آدم إلى يشوع إلى سائر الأنبياء الأخيرين فكانت إما ملفقة أو متناقلة من السلف الى الخلف، ولذلك هي مجموعات تدجيل وتحريف مما هو غير معقول مثل صيرورة امرأة لوط عمود ملح، وانشقاق بحر الأحمر ونهر الأردن وايقاف الشمس ريثما تم المعركة الخ . . .

والأدلة على أن اليهود كتبوا تواريخهم بعد رجوعهم من السبي كثيرة . فهم انتحلو من أساطير البابليين والأشوريين أسطورتي الخليقة الواحدة في الاصحاح الأول من سفر التكوين وفيها وصف حاذق لترتيب الخليقة يكاد يطابق بعض المطابقة اسنة التطوّر المعروفة الآن من حيث أن الحياة وجدت في الماء أولاً ، ثم تطوّرت وانتشرت على اليابسة نباتاً وحيواناً . ولعلّ الأسطورة الأخرى في الاصحاح الثاني أشورية الأصل . وترى بين

أساطير البابليين أساطير كثيرة مدمجة في أخبار الاسرائيليين الأولى .

ثم ذكروا أسطورة الطوفان وهي بلا شك أسطورة بابلية وموجودة بين أساطير البابليين لأن الطوفان لم يكن بطبيعته في فلسطين، بل هو أحرى أن يكون بين النهرين . وقد بالغوا في روايته مبالغة لا يقبلها عقل . وربما وجد المحقق كثيراً من أساطير البابليين والأشوريين في أساطير الاسرائيليين . وهو أمر طبيعي أن يقتبسوا أخبار غيرهم وأساطيرهم ويدمجوها بما لهم

وأقوى شاهد على أنهم انتحلوا من بابل تاريخها وأساطيرها ومقدّساتها أنهم اقتبسوا شريعة حمورابي البابلية . لأنها مطابقة كل المطابقة لشريعة اليهود في سفر التثنية . ولا بدَّ أنهم كانت لهم شريعة خاصّة قبل السبي . فلمّا كانوا في السبي واطلعوا على شريعة حمورابي أعجبتهم فاقتبسوها ونقحوها أو نقحوا شريعتهم بها . ولعلَّ هذا هو السبب في تسميتها تثنية الاشتراع .

بعد هذا البيان لم يبقَ شك في أن اليهود ابتدأوا يكتبون التوراة بعد ٦٨٧ سنة من خروجهم من مصر . وبعد عودتهم من السبي بمدة ٥٣٨ سنة قبل المسيح أي بعد ٦٤٧ سنة من موت موسى .

بناء عليه جميع ما كتبوه من تاريخهم وأخبارهم وأساطيرهم في مدة ٣٣٥٧ سنة أي من سنة ٤٠٠٤ قبل المسيح إلى ٦٤٧ قبله كتبوه بعد هذا التاريخ . فمن أين كانت لهم هذه المعلومات ؟ إن كانوا قد تناقلوها أبٌ عن جد ، فلا يوثق بتاتاً بصحة النقل لأنه لا يعتمد قط على خبر يتناقله أشخاص باللسان . فلا يبقى كما كان عند أول راوٍ . وليس لهم مصادر لأخبارهم غير النقل . فإذن كما جعلوا يدونون توراتهم كانوا يصنفون من عندهم ما يوافق أغراضهم ويتخذونه لهم حجةً ، ولا سيما لأنهم كانوا يزعمون ان الرب كلّم موسى والرب قال ليشوع ولغيرهما لكي يؤيدوا صحة دعواهم . ونحن نعلم أن الله (ان كانوا يعنون بالرب الله) لا يعلّم تعليمات باطلة أو يأمر بفظائع . فما كتبوه ليس الاّ من اختراع شهواتهم .

وإذا قالوا انهم شعب الرب المختار فمن يجرأ أن ينكر عليهم هذه الدعوى اذا كان يؤمن بتوراتهم . واذا قالوا إن الله وعدهم بأرض الميعاد التي هي فلسطين فمن يجحد هبة الله إن كان يصدق التوراة بحذافيرها . ولكن اذا قالوا إن الرب أمرهم أن يذبحوا النساء والأطفال

فضلاً عن الرجال فنكذب قولهم ولا نذعن لأمر هذا الرب . إن فظائع اليهود في دير يسين وطبريا وغيرها إنما هي اطاعة لربهم وما هو إلاَّ رب شرير .

اذن فاليهود كتبوا بأيديهم حجة فلسطين لليهود . ولا الله تعالى ولا الرب كتب ولا وهب ، إن أرض الله واسعة وهو تعالى وهبها للجنس البشري كله . وما اختصَّ بها قوماً دون آخرين . وهب انه منحهم هذه الأرض فهي لهم ما داموا مقيمين فيها ومحافظين عليها . فهل تبقى لهم اذا تركوها ١٧ قرناً أو عشرين ومضوا يسعون وراء المال لكي يصنعوا لهم منه عجل هرون الذهبي او تمثال البعل . والمال عندهم أعز من يهوه رب الجنود .

ثم ان الـه اسرائيل أي يهوه ليس الـه سائر البشر ، هم سموه في توراتهم يهوه رب الجنود . اعني انه قائد عسكري أي جنراليسمو . وكان بحسب قولهم يقودهم لمحاربة الأقوام الأخرى . وكان يكلم الأنبياء . وأما الـه سائر البشر فليس له لسان يتكلم كالناس وإنما كان يلهم . ولا يميز أحداً من عباده عن غيره . هو رب العالمين . ولا ينصر قوماً على قوم . ولا يحلل أموال أناس لأناس اخصَّاء ، ولا يجيز لبني اسرائيل أن يسرقوا حلي المصريات وأوانيهم . إن لله شريعة عامة تسري على جميع الناس ويخضع لها جميع الناس على السواء

بقيت لي كلمة عن صحة هذه التوراة التي لفقها اليهود على هواهم وأخذناها عنهم فمعظمها غير معقول . وحكاية وجود بني اسرائيل في مصر وخروجهم منها تكاد تكون كاذبة من أصلها . فلا ذكر لها في تاريخ مصر القديم على اختلاف مؤلفيه ولا أثر لها بين آثار مصر . حتى ولا ذكر لقوم يدعون اسرائيليين . ولا يمكن أن يخرج من مصر قوم أغراب فيهم ٦٠٠ الف مقاتل ، عدا ما معهم من نساء وأطفال وشيوخ حتى يبلغ عددهم نحو مليونين ونصف على الأقل (أنظر خروج ص ١٢ عدد ٣٧و٣٨) لا يمكن أن تخرج من مصر هذه الالوف ولا يحس بها أهل مصر وفرعونهم وحكامهم . ولا يمكن أن يحدث هذا الحادث ولا يذكر في كتابات مصر الهيروغليفية ، مع أن حوادث أتفه من هذا الحادث أو أسخف منه أشير لها في مذكرات الفراعنة على الجدران والمسلاَّت .

وكيف جاء الاسرائيليون الى مصر ومن أين ومتى ؟

يزعم بعضهم إنهم من نسل يوسف، والغريب انه ليس في تاريخ مصر ذكر ليوسف ولا

لسنابله ولا لمجاعة مصر وتخزين غلالها . وكيف يكون يوسف في تلك المنزلة العظيمة هند فرعون ثم يسخر فرعون نسله هذه السخرة المضنية حتى انهم يفضلون الهجرة .

أما حكاية انهم قضوا في برية سيناء أو عند سفح الجبل نحو ٤٠ سنة الى أن رحلوا الى أرض فلسطين فليس في سيناء آثار ولا أطلال تدل على انهم كانوا هناك مدة من الزمن أو كان هناك شعب كبير كهذا ولا بد أن يكون قد تضاعف عددهم على الأقل . فكيف كانوا يعيشون والبلاد صحراء قاحلة والجبل أجرد . فهل يحتمل هذا الجبل أن يعيش فيه مليونان ونصف مليون نسمة يستغلونه ويعيشون فيه ومنه . كل هذا يدل على أن كتبة التوراة اخترعوا حكايات غريبة لكي يظهروا للناس أن يهوه رب الجنود الههم مخلص قدير وانه اختصهم دون غيرهم من الامم بميراث عظيم لا حد له .

فاليهود هم كتبوا بأيديهم حجة فلسطين لليهود ونسبوها لله والله براء من أباطيلهم هذه. ولا فرق بيني وبينهم اذا كتبت تاريخ مصر ثم ذكرت فيه ان سمو الخديوي أو جلالة الملك وهبني أو باعني سراي عابدين . وبعد الف سنة يطلع حفدائي على هذا التاريخ الذي سجلت فيه هذا البيع . ثم يدعون شرعاً بملكية عابدين قائلين إن جدنا المرحوم حداد استوهب هذه السراي او اشتراها من صاحب مصر وان عقد البيع مسجل في هذا الكتاب التاريخي المهم .

هكذا يزعم الصهيونيون ان فلسطين لهم لأن أجدادهم ادعوها وسجلوها بأيديهم في توراتهم زاعمين ان الله وهبها لهم . والله يشهد انهم يأفكون . الله لم يهب لقوم شيئاً دون قوم ، الله وهب الأرض للجنس البشري وسماها ملكوت الانسان . وأما أرض ميعاد لقوم اسرائيل فهو هبة لهم منهم انفسهم أو هو اغتصاب لملك غيرهم .

ولكن في أميركا نصارى مغفَّلين يقدِّسون التوراة ويقولون حقًّا إن فلسطين لليهود . أليس في التوراة نصٌّ صريح ان الله وهبها « لليهود » . ومصيبتنا أن اليهود يستغلون اعتقاد هؤلاء النصارى المغفلين بقداسة هذه التوراة على الرغم مما فيها من قبائح وعيوب . وكأننا نحمل على عواتقنا حجة اليهود ودعواهم بملكية فلسطين ولبنان وسائر الشرق (أنظر يشوع فصل ١٣) رغم أنوفنا وإلاَّ كفَّرنا اكليروسنا . وكان المسلمون أبرع منَّا في تطهير القرآن من ارجاس التوراة . إذ يقولون أن التوراة التي أخذناها نحن عن اليهود ليست التوراة الحقيقية . أليس عاراً أن نأخذ توراة اليهود في هذا العصر كما هي برجاساتها ؟ واليهود « يضحكون في عبهم » ويقولون فلنمتط النصارى المغفلين بهذه التوراة « المقدَّسة » .

ثم يتخذ النصارى من الإنجيل حجة لليهود أفظع من هذه . وهي قول المسيح أحبب قريبك كنفسك . وهم يحسبون أن اليهود أقرباؤنا . فلما صار اليهود في كارثة المانية هتلرية تهالك النصارى لانقاذهم . ولما جعلت أوربا تطرد اليهود من بلادها وصاروا مشرّدين ولاجئين جمل بعض أفاضل الأميركان باغراء شخص يهودي اسمه ماركانتو (وكان يوماً سفيراً في استمبول) يجمعون فلوساً لاعانتهم فجمعوا لهم ١٧٢ مليون ريال من النصارى . وأخيراً سأل النصراني الذي كان يتولى هذا الجمع : « أود ان أعلم أين تذهب هذه الفلوس » : « فقال له « ٤٢ بالمئة منها تذهب الى تل أبيب » . فصاح الرجل . ويحك أأجمع مالاً من النصارى لكي تحاربوا بهِ عرب فلسطين ! لا . إني أنفض يدي من هذه الخدمة التي كنت أظنها انسانية فاذا بكم جعلتموها شيطانية .

صحيح ان المسيح قال أحبب قريبك كنفسك . ولكنه كان يعني الانسان الآدمي . واليهود ليسوا انسانيين .

أما موسى ان صح انه قال إن اليهود شعب الله المختار فقد أضرَّ اليهود ضرراً بليغاً لأنهم بحسب هذا الاعتقاد حللوا لأنفسهم جميع اموال الأمم الأخرى وأملاكهم . وهم يلقبون جميع الأمم الأخرى بالجوييم أي الأنجاس ولهذا يكرهون سائر الأمم والأمم تضطر أن تكرههم . فلو عادوا الى صوابهم واعتقدوا كسائر الأمم ان الله رب العالمين لما أبغضهم الناس .

بقيت الكلمة الأخيرة التي لا بدَّ منها :

يقدِّس النصارى التوراة التي أخذوها عن اليهود على اعتبار أن فيها نبوءات عن مجيء المسيح . يعني أنه لولا هذه النبوءات لما عدَّ يسوع الناصري مسيحاً . هكذا يظن معظم النصارى . والحقيقة ان يسوع الناصري مسيح بنبوءات وبغير نبوءات . لأن حياته وتعاليمه تثبت انه مسيح مرسل من الله لانقاذ البشرية واصلاحها وقد أيد تعاليمه بدمه . فهو مسيح رغم أنف من ينكر رسالته وحياته ، وتعاليمه تشهد له .

وإني وكثيرين غيري نتأسف أن نكون مرتبطين بتوراة اليهود على ما فيها من النقائص في حين أن عقيدتنا الدينية لا تستند على التوراة ، بل على تعاليم المسيح ورسالته وتضحيته كما وردت في الأناجيل . نحن في غنى عن التوراة .

أرجو ممن لا يصدق هذا الكلام أن يطلع على الأسفار الخمسة الأولى وعلى سفر يشوع على الأقل فيرى الفظائع التي لا تليق بكتابٍ إلهيٍ .

يمكن الانسان الفاضل أن ينتقي من التوراة بعض أسفارها الصالحة كسفر الجامعة وأمثال سليمان الحكيم ومزامير داود وسفر أيوب ونحوها .

نقولا الحداد

سقراط الفيلسوف

الحكمة تُصلَب

لو كنت تمشي في سنة ٣٩٩ قبل المسيح في شوارع أثينا لعثرت عند سوق الخضرة والفاكهة والبدالة على كهل في السبعين ، في أطمارٍ غير مهندمة ، وليس في قدميه سيور حتى ولا نعال أحياناً ؛ وهو يتكلم تارةً بتؤدة وأخرى برقة وأخرى بحماسة ، وقد تجمع حوله عشرات من الأثينيين من كل طبقة : من الباعة والصعاليك المستجدين والمتموّلين والعمال والتجار والموظفين والأثرياء والعلماء والفلاسفة — تراهم جميعاً منصتين يستوعبون ومستمعين يتفهّمون ، وذلك الزاهد المتقشف ينثر كِلم الحكمة ونظريات الفلسفة ، حتى إذا سأله سائل أو اعترضه معترض أو ناقضهُ مناقض انفجر كالسيل يتدفق بالحجج والبراهين ويتبسّط بالأقيسة المنطقية والموازين ، ولمعت الحِكَم من دماغهِ كالبرق الخاطف ، ودوّت العظاتُ من فمه كالرعد القاصف ، حتى إذا بتر خطابه سيرهُ إلى موقف آخر انفضّ عنه بعض سامعيه مدهوشين ، وتبعه بعضهم مسحورين ، كأنّ مغنطيساً يجتذبهم إليه أو كهرباء تهزهم من حوله .

ذلك هو سقراط الفيلسوف أستاذ أفلاطون ، الذي هو أستاذ أرسطو .

وما زال ذلك الحكيم يتمشى في الشارع ، وهو ينثر هنا كلمة كأنها تعويذة ، وهنا جملة كأنها شعر ، والمسحورون يحفون من حوله ، إلى أن رأوا أنفسهم أمام هيكل مجمع الآلهة « بنثيون » . فدخله ودخل وراءه تلاميذه .

وإذا الكاهنة الموكلة بترجمة حديث الآلهة تتصدّر وتتصدّى كأنها ترحّب بالداخلين وإذا سقراط يرى نفسه أمام تمثال زفس ، إلـه السموات والأرضين . فحدّق فيه ثمّ حملق ثم قال : هل لك أيها الإلـه أن تُنقص السماء نجماً أو تزيدها شمساً ؟ .

فانبرت الكاهنة قائلة : إذا كنت لا ترى ما يزيدهُ الإلـه زفس أو يُنقصه كل دقيقة بعد أخرى فالذنب ذنبك . لماذا تغمض عينيك أمام سطوع نوره الباهر ؟ أو أنت أعمى البصيرة ؟

فضحك سقراط ساخراً وقال : أجل ! يضع زفس شمساً من يمناه في الصباح ، ويأخذ كوكباً بيسراه في المساء، فيبقى عدد النيرات في السموات كما نراه !

ثم انتقل إلى أمام وثن آخر وتأمله وقرأ في سيمائه أنه بوسيدون إلـه البحر (نبتون عند الرومان) ، وقال : هل تستطيع أيها الإلـه أن تهدئ اضطراب البحر يوماً واحداً؟

فقالت الكاهنة : إن الإلـه بوسيدون لا ينام أيها الحكيم !

فقال : أفلا يستطيع أن ينام ؟

فقالت : اليقظة سجيته ، فكيف تبطل سجيته ؟

ثم التفت فإذا به يواجه صنم « أبولو » إلـه الشمس وقال : كيف تطيق أيها الإلـه « أبولون » أن تنكسف شمسك حيناً بعد آخر ؟

فقالت الكاهنة : الشمس لا تكسف وإنما ضباب آثامكم يحجبها عن عيونكم .

فقال : ألا يوجد بين العباد فردٌ واحد بلا آثام فتبقى الشمس ظاهرة له ؟ . أوَلا يتفاوت الناس في الآثام فيتفاوت ظهور الشمس وانكسافها ؟

فقالت : متى غضب إله الشمس عمَّ غضبه الابرار والأشرار .

فقال : إذن ليس هذا الإله عادلاً ، إذ ينقم من الأبرار بجريرة الأشرار .

ثم تقدم فإذا هو أمام تمثال « هيفاستوس » إله البرق والرعد .

فقال : هل يقدر هذا الإله أن يمنع البرق والرعد مدة شتاء واحد ؟

فأجابت : حاشا للإله « هيفاستوس » أن يذعن لامتحان الحكيم الصعلوك سقراط.

فابتسم سقراط وقال : وهل تستطيع الإلهة « إستريا » المنتصبة أمامي أن تضبط ميزان العدل متوازناً ، فاني أراه في يدها مائلاً .

فقالت : هي تستطيع ، ولكن أنتم لا تريدون إلاَّ أن يبقى شركم راجحاً .

ومال وقال : هذه « أرطاميس » العذراء إلهة النور الطاهرة ، فلماذا تسمح بتقديس الفحش في هيكل أفروديت ؟

فقالت : سل عباد « أفروديت » لماذا صنعوا إلهتهم فاجرة داعرة ؟ هل ترون هنا تمثالاً لأفروديت ؟

فقال : إذن تعرفين أيتها الكاهنة الموقرة أن العباد يصنعون آلهتهم لا أن آلهتهم تصنعهم

والتفت إلى تلاميذه وقال لهم : سمعتم قول الكاهنة المحترمة ، وعلمتم أن البشر ينحتون آلهتهم من جلمد ثم يعبدونها . فيمكنكم أن تحطموا هذه الأصنام بمهدّات حديدية ، ولا تستطيع الآلهة التي تتمثل بها أن تقيمها ثانيةً .

فقال أحد أتباعه : وماذا كانت الآلهة قبل أن ينحت الفنّانون هذه الأصنام ؟

قال : كانت من منحوتات مخيّلات الشعراء ، والشعراء يتبعهم الغاوون ، فما تخيّله الشاعر صنعه النحات ، وكلاهما من ذوي الخيال الفنّي .

وقال آخر : وماذا كانت الآلهة قبل أن يتخيلها الشعراء وينحت تماثيلها النحاتون من أهل الفن ؟

قال : كانت منظومات في عقول الحكماء ، وتطوّرت ظنون الحكماء فنشأت منها هذه الآلهة الوهمية . أما الإلـه الحقيقي فهو واحد لاغير ... هو المدبر هذا الكون الذي هو واحد أيضاً . وسأله آخر : أين هذا الإلـه الواحد يا معلم ؟ أرناه

قال : هو روح غير منظور سرمديّ ، مالىء هذا الكون العظيم ، يديره بسنن سرمدية لا تتغيّر .

وكانت الكاهنة كسائر السامعين منفرجة الشفتين بهتةً وعجباً ، إلى أن سألها سقراط : ماذا عند الكاهنة الموقرة من نبإٍ للصعلوك سقراط ؟

فحدّقت الكاهنة فيه قائلةً : سقراط مات طفلاً ، وولد كهلاً ، وعاش جهلاً ، وسيصلبُ عدلاً ! ...

وعقّب على قولها بقوله : «وسيبعث قدّيساً» . ثم ابتسم وقال : وحق السماء ما صدقت لكِ نبوءةٌ قبل هذه النبوءة يا كاهنة !

وخرج ، وخرج تلاميذه من حوله ، وهم يتعجّبون مما سمعوه إلى أن سأله أحدهم : ما فحوى نبوءة هذه الكاهنة يا سيدنا ؟ إنها لأحجية .

فضحك سقراط وقال : إن سقراط مات طفلا في المعرفة ، ولما صار كهلاً علم أنه جاهل لا يعلم شيئاً ، وكذلك عاش جاهلا . ولما أوشك أن يعلم شيئاً صُلب عدلاً بحكم الشريعة الدمقراطية التي يقيمها أناسٌ ليسوا دمقراطيين .

فقال آخر : أليس الحكم الديمقراطي عادلاً يا سيدنا ؟

قال : لم أقل إنه غير عادل ، بل عنيت أن ديمقراطيتنا غير صالحة ، لأن رجالها ظالمون بل هي فساد مطبق تحت اسم ديمقراطية ، هي نكبة على أثينا ، هي بلوى تشريعية ، هي من وحي هذه الأصنام التي رأيتموها وتعبدونها . إن عبادتكم لها سخف باطل . خيرٌ لكم أن تكفوا عن العبادة الباطلة وتعكفوا على تفهُّم الديمقراطية الصحيحة الحقة .

فقال آخر : أتنهانا عن العبادة يا سيدنا ؟

قال : كلاَّ ، بل اعبدوا الإله الواحد الحق الذي لا يُرى .

قال : كيف نعبد ما لا يرى ؟ إنها عبادة حمقاء .

قال : بل هي العبادة الحقة السديدة .

قال : قل لنا ياسيدنا كيف تكون عبادة ما لا يُرى ؟

فأجاب : تكون بأن تتأمّلوا هذا الكون إلى أن تدركوا أن له مدبّراً واحداً ، ثم تؤمنون به، ثم تعملون بمقتضى الفضيلة فتمجّدونه بالعمل الصالح.

* * *

وهكذا كان سقراط يسير بين الشعب مبشراً بوحدانية مدبر الكون ، حاثًّا على الفضيلة والأعمال الصالحة بدعوى أن السلام لا يسود بين الأنام إلاَّ بالمحبة المتبادلة ، والمسامحة والتضحية في سبيل الإنسانية ، والقناعة والتزام العدالة .

إن الطمع يؤدي إلى المداوة ، والعداوة تثير الحقد والضغينة ، والضغينة تؤدي إلى الخصام فالقتال فسفك الدماء . كل هذه تتلافاها المحبة والمسالمة والتضحية — هذه زبدة فلسفة سقراط وتعاليمه .

كان سقراط يعيش متقشفاً زاهداً مسالماً ، وما عادى إلاَّ الطغاة الظلاَّم المرائين في ادعاء الدمقراطية .

كانت أثينا في ذلك الحين في فوضى مطبقة لأن الشيوخ « Senators » كانوا فاسدين بلا أخلاق ، إلاَّ نفراً قليلا .

* * *

كان مبدأ سقراط السياسي وغرامهُ الوطني أن تكون الدولة قوية متينة متماسكة متضامنة . وفي يقينه أنها لا تكون هكذا إلاَّ إذا كان الوطنيون مثقفين ثقافة صالحة على أسس الأخلاق السامية والعدالة والحق. ولم يكن لسقراط مطمع في وظيفة أو منصب سياسي رفيع أو وضيع ، ولهذا لم يشتغل بالسياسة .

كان يعتقد أن الدولة مؤلفة من وطنيين يمكن أن يتطهروا ويسلموا من الشر بتحسين حالتهم العقلية والخُلقية عن طريق التعليم والتثقيف وبهذه الوسيلة وحدها يمكنهم أن يميزوا بين الحق والباطل تميزاً صحيحاً.

بهذا التعليم حصر سقراط عمله الشريف، وعليه وقف دعوته لأنه كان يثق ثقة أكيدة أن العقل البشري يستطيع أن يدرك إدراكاً جليًّا هذه الأدبيات النفسية : أي الفضيلة والحق والحقيقة والنزاهة ، إلى غير ذلك من الفضائل اللازمة لحياة الإنسان . ويمكن أن

يثقف العقل حسب هذه الفضائل . وثمت على الإنسان الرشيد أن يجتنب الآثام وينجو من عواقب الرذائل .

بهذه الروح البارة كان سقراط يطوف في أثينا ، وقلما خرج منها إلى الريف ؛ وكان يقف في وسط تلاميذه وأتباع فلسفته يعلمهم ويعظهم ويشرح لهم الآداب النفسية وفائدتها لسلامة الجنس البشري . وكان يعتقد أنه بهذا التعليم الشريف يرفع نفوس مواطنيه ويسدد خطواتهم الى الحياة السعيدة ؛ لأنه إذا أُشبع الوطني بهذه التعاليم السامية وجَّه أعماله إلى الصواب والخير والصلاح .

على أن سقراط لم يتوسَّل بالدين الى هذه الغاية الصالحة ، لأنه لم يكن يعتقد أن الدين كافٍ لترقية الأخلاق وتقويمها ، بل كان يعتقد أن الدين الذي اصطنعه البشر لا بدَّ أن يكون فاسداً كفساد صانعيه ، والمعبود الذي خلقه البشر ونحتوا تماثيله ليس في طوقه أن يخلق في البشر أخلاقاً سامية شريفة . فإذاً لا يبقى إلاَّ المعرفة أو علم الحقيقة عن هذا الكون وطبيعة الإنسان لتدل الإنسان على الفضيلة . ولا طريق أدل عليها إلاَّ المعرفة .

* * *

وانتشر صيته في جميع أمصار اليونان فالرومان فما حولهما ، حتى إنه لما سُئِل هيكل دلفي : من هو أحكم الأحياء على الأرض ، أجاب : « سقراط » ، ولذلك تجمع حوله عشرات من التلاميذ والأتباع كما تجمعوا حول يسوع الناصري في اليهودية والجليل . وكان الفيلسوف أفلاطون من جملة تلاميذ سقراط المعجبين بذكائه الباهر ومبادئه السامية . ولم يكتب سقراط لنا كتباً عن فلسفته وحكمته وتعاليمه . ولكن أفلاطون كتب سيرة حياته وشوارد حكمته وفلسفته .

ولسوء الحظ أن الحكومة الأثينية أساءت فهمه ، لأنّ الأثينيين كانوا لا يزالون يتشبثون بالعقائد القديمة البالية ويأبون خلعها . أو ان الأغراض النفسانية ضربت بتعاليمه عرض الحائط ، ولذلك كفَّروه .

وكان سقراط على علم تام بمعلومات عصره الكونية أو علومها كالطبيعة والفلك والرياضيات والحياة الحيوانية والنباتية على ما كان فيها حينئذٍ من السخف والتخرص والخرافات والترهات . ولكنه لم يعكف على البحث والتعليم فيها ، لأنه كان يعتقد أن التفلسف فيها لا قيمة له ، لأنه غير مستند إلى اختبارات وامتحانات عملية تؤيد المظنات الفلسفية . ولهذا جنح إلى الفلسفة العقلية والفلسفة الأدبية « Ethics » والمنطق وتوسع فيها ، ما أذنت له عبقريته العجيبة .

وفي سني سقراط الأخيرة كانت الحروب بين أثينا وإسبارطة في أشد احتدامها . وفي سنة ٣٩٩ قبل المسيح كان الديموقراطيون ناقمين جداً على القواد لأنهم أهملوا واجباتهم ، فهلك بسببهم عدد عظيم من الجنود والناس . فاستصدر ألكسانوس ، أحد الشيوخ أمراً بإعدامهم في الحال من غير محاكمة ، وهو أمر مناقض لروح الدستور والعدالة ، فحدث لهذا شغب في الشعب .

وكان سقراط معلم بعض الأعيان وصديقاً لهم ، ومنهم كريثياس وثيراميس وبيثودوروس وغيرهم ، فشملته التهمة بتلك الكارثة بزعم أنه من أنصار الأعيان أعداء الديمقراطية ، فضلاً عن مباحثه الفلسفية المناقضة للدين والدمقراطية . فكثر أعداؤه ومبغضوه . فاستدعي للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ ، وكان حينئذٍ خارج أثينا . فما تردد أن لبى الدعوة وهي أمام الشيوخ لكي يدافع عن نفسه . وكان في السبعين من عمره حين إتهمه المجلس عن نفسه : وكان دفاعه تقريعاً وتأنيباً لحاكميه حتى أثار حفيظتهم . بالخيانة العظمى في ثلاث جرائم

أولاً : أنه مارق من الدين .

وثانياً : أنه يجحد الديمقراطية التي هي دستور أثينا ويكرز ضدها .

وثالثاً : أنه يفسد عقول الشبان بإغرائهم على ارتكاب هذين الجرمين .

وكان أنيتوس « Anytus » زعيم الديمقراطيين يستجوبه ، فقال له هل تعرف أنك أفسدت دين الجمهور بما بثثته فيه من الالحاد والمروق؟

قال : كلا ، البتة . بل بالعكس رددت الجمهور عن الضلال إلى الحق .

— أما قلت في الهيكل لأتباعك إنكم تستطيعون أن تحطموا هذه التماثيل التي تعبدونها ولا تستطيع الآلهة أن تقيمها ثانية ؟

فأجاب : أليست هي حجارة نحتها نحاتون من ذوي الفن ؟ فهل للحجارة قوة خارقة بحيث لا تتحطم تحت المطارق الحديدية ؟

فقال انيتوس : ألا تعلم أن هذه التماثيل ليست الآلهة أنفسها . إنما هي رموز للآلهة الحقيقية . تمثال أبولو مثلاً ليس إله الشمس نفسه وإنما هو يمثل إله الشمس .

— وهل تعني أن الشمس نفسها إله ؟

— وهل عندك شك في هذا ؟

— ليس عندي شك ، بل عندي يقين أن الشمس جزء حقير من أجزاء الطبيعة الكونية العظيمة المالئة للفضاء غير المتناهي ، فهي وسائر أجرام السماء وعناصر الأرض إنما هي مواد تتحرك بقوة الإله الواحد القوي الجبار الذي لا يرى . والشمس وغيرها من

أجرام الكون وعناصره تتحرك بحسب سنن ثابتة لا تتغير كما قررها ذلك الإله المدبر الأكوان ومسيِّرها. هل تستطيع الشمس أن تطلع في غير ميعادها وتغرب في غير ميعادها الذي تقرر لها منذ الأزل والى الأبد؟ هل يستطيع نبات الربيع أن يزهر في الخريف؟ أليست كل ظاهرات الطبيعة مقيَّدة بأزمنتها، ولا سلطة لها على نفسها، ولا يد للآلهة في سلوكها؟

فارتجَّ على أنيتوس. ولم يحر جواباً. فانتهره سقراط قائلاً: أجب يا هذا. هل أخرسك الجهل؟ إنكم في ضلال مبين. عميتْ بصائركم عن الإلـه الحقيقي.

فانتفض أنيتوس وازمهرَّت عيناه غيظاً وقال: منذ الأزل وإلى الأبد تمثل تلك التماثيل آلهتَنا التي عبدها جدودنا وجدود جدودنا. فهل لمارق مثلك أن ينقض عقائد الأسلاف ويغيِّر دين الشعب؟ إنه لإلحاد يستحق الموت توّاً. ثم اما كنت تدحض الدمقراطية بفلسفتك العقيمة؟

— كلاَّ، البتة. بل كنت أجحد الدمقراطيين لأنهم يدَّعون الدمقراطيـة القويمة في حين أنهم حكّـام مستبدون ظلاَّمٌ. وفي صـدورهم أفاعي سامَّة يدَّعون أن حكومتهم كحكومة الشعب، من الشعب وللشعب. وما هي إلاَّ حكومة ذئاب في ثياب حملان. هل تريد أن تقنع هؤلاء الشيوخ أنك دمقراطي تخدم الشعب بحكمك بالموت على هـذا العاقل الفاضل الواقف فيكم يدينكم، في حين تزعمون أنكم تدينونه؟ هل أقامتكم الآلهة أيها السخفاء ديّـانين للصالحين وقاتلين للأبرار؟!

فارتجَّ المجلس ودوَّت فيه ضجَّة. بعضهم يقولون: فليُصْلب، وآخرون يقولون: لا فُضَّ فوه. له كل الحق!

وبعد برهة بذل أنيتوس كل جهدٍ لردّ النظام إلى نصابه. ثم استأنف الاستجواب وقال: لعلك تطمع أن تأخذ من هذا المجلس براءةً بإلحادك، ومرسوماً دمقراطيـّاً بصلاحية عقيدتك الفاسدة، وجائزة على اختراعك ذلك الإلـه غير المنظور، أعني الإلـه المجهول أو بالأحرى غير الموجود؟!

فقال سقراط: لا أقبل براءةً أو جائزةً إلاَّ من إلـهي الموجود في كل مكان، الذي به أنت تحيـا وتتحرك وتوجـد، وبدونه أنت عدَمٌ. ووجوده بيِّـن لذوي البصائر، والسموات والأرضون تخبرنا عنه وتدلنا عليه، ولكنكم أنتم عميان القلوب فلا تبصرونه وأنتم سخفاء العقول فلا تدركونه، في حين أنه ملامس أجسادكم ومباركٌ نفوسكم.. أعليَّ تحكمون بالموت أيها العميان القلوب السخفاء العقول، وأنا نور الحق المضيء فيكم.

فإن أمتّموني يشتد حلك الظلام فيكم، فتتخبطون في عشوائكم وتتهالكون في غروركم. أما أنا فإلى إلهي العلي أنضم وبه أسعد .

فصاح أنيتوس لقد قتلنا هذا المجرم بتبجحه وتجديفه واستكباره ....

فضج المجلس وصخب وتعالى القول : « اقتلوه » ورجع على القول : « باركوه ، كرِّموه وقدّسوا البرَّ فيه » .

ولما هدأت العاصفة سأله أنيتيوس : أما كنت معلم كريتياس وصديقه وعشير السيبيادس ، وموحياً إليهما مبادئك حتى أفسدت سلوكهما ، فدفعتهما وغيرهما إلى هاوية الضلال ؟

فقال : بلى ! كنت صديق الاثنين ، وما علَّمتهما إلاَّ الحق والحقيقة !

قال أنيتوس : ولكن صوابك كان سيب ضلالهما، فقاتلا الدمقراطية وزعزعا الجمهورية حتى كادت تسقط .

— لا تسقط جمهوريتكم إذا كانت قائمة على أساس الدمقراطية القويمة . وإذا تزعزعت فلأنكم أفسدتموها لسوء تصرفكم وطغيانكم ، وعوَّجتموها بإفسادها . إنكم تستغلون الدمقراطية لمنافعكم الخاصة أيها الطغاة العتاة الفاسدون . أأنتم أيها المجرمون تحاكمون الأتقياء الصالحين ؟ كان يجب أن تُحاكموا أنتم وإن كانت المحكمة عادلة تعجزوا عن أن تبرّئوا أنفسكم . أنتم تستحقون الموت أيها المجرمون .

فضجَّ المجلس وعاد الصخب والهرج ، وكان قوم يقولون « اصلبوه » ، وقوم يقولون « قدسوه . إنه يقول الحق » .

وحاول أنيتوس أن يسكّن الزوبعة فلم يستطع إلى أن رفع سقراط ذراعيه وقال بصوت جهوري : سمعاً يا قوم . سمعاً ، سمعاً ...

فهدأت العاصفة لكي يسمعوا سقراط فقال : إني أرحب بحكمكم مهما كان لأني أعلم أني واقف بين جهلة لؤماء ، ولا عتب على الجاهل . فاحكموا بما تشاؤون . وإلهي يصفح عنكم . لا تحكمون إلاَّ على الجسد وأما الروح فلا تصل إليها أيديكم .

وجرى الاقتراع بكل تورُّع . وتورَّع المسيطرون عليه عن الغش . فاقترع ٢٨٠ ضد سقراط و ٢٢٠ معه . فحكم عليه بأنه مجرم . وطلب خصومه أن يحكم عليه بالموت في أثناء ساعة .

وكان ممكناً أن يحكم عليه بعقوبة خفيفة . ولكنه اشمخرَّ واسبطرَّ وترفَّع قائلاً : إنه ليس مذنباً . فإذا كانت المحكمة عادلة يعامل كرجل صالح مفضال ، ويثاب على تقويمه

أخلاق الناس . ولكن ما دام المجلس يرى فضائله آثاماً فيقترح أن تفرض عليه غرامة إسمية ديناراً واحداً « mina » إرضاء لكرامة المجلس . على أنَّ خصومه لم يستاؤوا من تفاهة الغرامة بل من إدعائه الصلاح وتبجحه بالفضيلة متعالياً عليهم . فحكموا عليه بالموت توًّا .

ولما كان قانون أثينا أن لا ينفذ حكم الإعدام في أثناء إبحار السفينة المقدسة إلى ديلوس كعادتها كل سنة ، تأجَّل تنفيذ الحكم شهراً ريثما تعود السفينة . فبقي سقراط في السجن يستقبل أصدقاءه ويحادثهم كعادته كأنه غير محكوم عليه .

ودبَّر صديقه كرينو وسيلة لفراره . ولكن سقراط أبى أن يفرَّ فرار المجرم . فأصرَّ على البقاء على اعتبار أن الدينونة كانت في هيئةٍ قانونية فيجب أن تطاع، وإن كان الحكم ظالماً . أوَليس عاراً على سقراط أن يفرّ ؟!

وكان بعض أصدقائه يجتمعون به في السجن وينصحون له أن يعلن ارتداده عن عقيدته بالآلهة ومبادئه الفلسفية ، فلم يذعن للنصح . وكان تلميذه أفلاطون أكثر المقربين إليه وأحبهم إلى قلبه . فقال له : إنك يا سيدنا مغالٍ في تشبثك بمبادئك . وهذه الغلواء تكلفك حياتك ثمناً لها . فيجب أن تخفف من غلوائك لكي تسلم حياتك .

فقال سقراط : إن هذه المبادىء التي تستنكرونها عليَّ وتحسبونها غلوًّا هي أثمن من حياتي . فأرجوك يا عزيزي أفلاطون أن تخفف من غلوائك في الحرص على حياتي !

فقال أفلاطون : إننا نحرص على حياتك لأننا في حاجةٍ شديدة إليها . فهي ملك الشعب الأثيني لا ملكك . فارفق بهذا الشعب الذي ربيته وعلمته وقدته الى الحق والصلاح ، ولما ينضج بعد . فنخاف أنك إذا فارقته وهو لا يزال قاصراً أن يفقد ما لقنته فيتقهقر . فبالله لا تترك شعبك قبل أن ينضج .

فقال : إن ما بذلته للشعب من تعليم ونصح كافٍ أن يثقفه ويصونه من الضلال . فإن فقده فلا يستحق البقاء . فدعه يتهوَّر في فساده إلى أن يفنى ، وإلهي قادر أن يقيم بعده شعباً أصلح للبقاء . أتريد أن أنكر تعاليمي فيثور عليَّ المؤمنون بي ويحكمون عليَّ بما هو أمرُّ من الموت ، ويسجلون عليَّ الإفك والنذالة . دعني يا عزيزي أن أتلقى الموت بطيب نفس، لأني اذا عشت تموت الحقيقة واذا مت تحيا الحقيقة أليست هذه آية الإنسان النبيل الذي قضى نصف قرن يبشر قومه بسعادة الفضيلة ؟!

فتقهقر أفلاطون وخرج باكياً .

* * *

وهنا نسلم القلم لأفلاطون لكي يكتب كيف مضى سقراط ...

كتب أفلاطون يقول : كان سقراط في السبعين من عمره (٣٩٩ ق . م) حين حكم عليه بالموت . ولعله افتكر أنه قد حان له أن يموت ، وأنه يمكن أن لا يصادف حظاً أفضل من الحظ أن يموت نافعاً وطنه وقومه بموته . فقال لأصدقائه المودّعيه : « سُرُّوا ولا تحزنوا . لن تدفنوا إلاّ جسدي » ...

ثمّ نهض واصطحب كريتو Crito صديقه الى الحمام . وأمرنا أن ننتظر ، فانتظرنا . وكنا نتكلم بحزن عميق . لقد كان كأب لنا . وسنكون بعده يتامى . وبعد برهة عاد وجلس معنا ولم يتكلم كثيراً . ثمَّ أتى السجّان وجلس إلى جانبه وقال له : أي سقراط الذي أعرف أنه أنبل وألطف من جميع من جاؤوا إلى هذا المكان . لا أظنك تنطوي على ضغينة عليّ كسائر المحكوم عليهم الذين كانوا يصخبون ناقين عليّ ، ويلعنونني حين آمرهم أن يشربوا السم (١) امتثالاً لأمر الحكومة ...لا تغضب عليَّ كما كان يغضب أولئك المجرمون الذين كانوا يزعمون أني أنا المجرم ، وما أنا إلاَّ منفذ حكم القضاء . وداعاً يا سيدي . فاجتهد أن تتحمل ما لا بدّ منه . وأنت تعلم ما هي واجباتي .

ثم خرج السجّان والدمع ينسجم من محجريه . وقال له سقراط وهو خارج : « إني أرد لك صدى عواطفك الشريفة. وسأفعل ما أمرت به » . ثمّ وجّه الخطاب الى الحضور وقال : « ما أنبل هذا الإنسان ! كان يزورني منذ دخلت السجن . يجب أن نفعل كما أمر. إئتني بالكأس التي ينبغي أن أشربها يا كريتو . فإن لم تكن قد أُعدّت فليعدها الخادم .

وأشار كريتو الى الخادم أن ينجز الأمر ، فخرج هذا ، وبعد برهة عاد ومعه السجّان وفي يده الكأس . فقال سقراط : « أي صديقي الطيب الخبير بهذه المهمة . الق عليّ تعليماتك . ماذا أفعل » ؟

فقال السجّان : لاشيء سوى أن تتمشى إلى أن تثقل ركبتاك فتضطجع . ومن ثمَّ يفعل السم فعله . وقدم الكأس لسقراط . فتناولها من غير اضطراب ، ولا اكفهرار ، وقال للسجّان مازحاً : ما قولك إذا سكبتُ شيئاً منها على أحد الآلهة ؟

فأجاب : « لم نحضر إلاّ القدر اللازم لك » .

فقال : « فهمت . مع هذا يجب أن أصلي لكي تعجل الآلهة رحيلي الى العالم الآخر ثم رفع الكأس الى شفتيه وتجرعها مبتسماً .

قال أفلاطون . إلى هنا كنا نضبط حزننا ، ولكن لما أتى على ثمالة الكأس لم نعد

---

(١) وهو عصير نبات يسمى بالانجليزية Hemlok ولعله المسمى بنجاً بالعربية ، وهذه كلمة فارسية في الاصل . وعصيره مخدر ويحدث السبات في شاربه

طيق صبراً ، فتدفقت عبراتنا ، ووضعت وجهي بين كفي وما كان كريتو أقل تفجعاً مني ، فاندفع الى الخارج ناحياً ، وتبعه أبولو دفيرس الذي ما كفّ عن البكاء منذ دخل ،فصرخ صرخة رهيبة وهو يخرج . فقال سقراط . « ما هذا الصراخ ؟ لقد أبعدت السيدات من حولي حتى لا يزعجنني بولولتهنّ . لأنه قيل إن الانسان يجب أن يفارق العالم بسلام . فاهدأوا وتصبروا » .

فلما سمعنا هذا التوبيخ خجلنا وكفكفنا دموعنا وعدنا ، وبقي هو يتمشى الى أن قال إن ركبتيه ثقلتا ولم تعودا تحتملانه . ثم اضطجع ، وجعل السجّان كل هنيهة يجس يديه وساقيه ، ثم قرص قدمه وسأله : أيحس شيئاً ؟

فأجاب : لا . ثم قال لكريتو « إني مدين للطباخ ،فهل تتكرم بالوفاء . فوعده كريتو بالوفاء ثم جسّ هو نفسه فخذه فذراعه وقال : « انهما باردتان . السم دنا من القلب . دنت النهاية فوداعاً يا أصحابي » ثم بعد هنيهة شعرنا بخلجة ، فكشف الخادم الغطاء عن بدنه وإذا مقلتاه جامدتان ، فأطبق كريتو جفونه وشفتيه .

قال أفلاطون : « هكذا كانت نهاية أحكم الحكماء وأعدل العادلين وأفضل الفضلاء من كل من عرفت . انتهى كلام افلاطون .

ويقال إن سقراط كان يكتب فعل المخدر فيه الى أن صار في غيبوبة . فاذا صحّ هذا القول يكون سقراط أول من كتب فصلاً في الأقرباذين (المواد الطبية أو علم الأدوية) .

مات سقراط ولكن ذكره شاع ، وعاش الى اليوم ، وفلسفته انتشرت بعده في الشرق والغرب . وكانت تدرس في جميع المدارس والجامعات نقلاً عن تلميذه أفلاطون الذي كتبها وعلمها . وجمهورية « أفلاطون » ليست الاّ وحياً من تعاليم سقراط ، ولهذا جعل اسم سقراط مكان اسمه في المناقشات .

وتزوج سقراط ورزق ثلاثة بنين لم يكونوا على كثير من الذكاء . وكانت زوجته سليطة قليلاً ، ولا غرو لأن المرأة التي تستطيع أن تعيش مع سقراط يجب أن تكون على جانب كبير من الذكاء والمعرفة ، وإلاّ كان زوجها في نظرها شاذاً لا يطاق معشره . ومع ذلك كانت تقدره قدره فكانت تقول : « لقد منحنا كثيراً من الشهرة والسمعة الطيبة وأعطانا قليلاً من الخبز »

وفي التاريخ نوابغ كان حظهم كحظ سقراط ، منهم جاليليو الايطالي وغيره . وكفى بشبيه له أو — ممتاز عنه — يسوع الناصري وهو يقول : يارب إغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

نقولا الحداد

ابن الطبيعة

هذه قصة خيالية ولكنها محتملة جداً وفي كل يوم تحدث حوادث تضاهيها وتكون عبرة وعظة للمتعظين . فلا بدع أن تعجب القارى .

— ما لك يا أخي سليم مقطباً اليوم ، ما ذا جرى لك ؟

— تكيد كيدك ثم تسألني ما ذا جرى . تبًّا لك من أخٍ خبيث .

فاستغرب يوسف تعنيف أخيه الذي لم يعهد مثله من قبل وهو لا يدري سبباً له . وقال : تقول كيدي ؟ ما ذا تعني يا أخي ؟

— لعلك تتجاهل أنك وشيت بي لأبي إني قضيت معظم السهرة مع الراقصة نعيمة . فغضب عليَّ غضباً شديداً وتوعدني .

— ويحك ! أما كنت تفكر أن أباك رقيب عليك بنفسه ويعرف كل حركة من حركاتك لأنه يعلم ما أنت فيه من غيّ . فلا يتوقع وشاية بك من أحد حتى يغضب عليك . وإذا علم أنك لم تعد إلى البيت إلاّ بعد الثانية من نصف الليل فماذا يظن غير أنك كنت متطوحاً في ضلالك .

— بلى . علم من فمك ما أنا فيه من ضلالة وإلاّ لما كان يسهر حتى يعلم متى أعود الى البيت

— سيان علم مني أو من نفسه بزيغانك وانغماسك في شهواتك . أتظل تمادى في سلوكك المشين هذا لا هياً عن دروسك حتى تسقط في امتحاناتك .

— صه . لست وليّ أمري حتى تؤنبني .

— بلى . إني أخوك الأكبر . ولي أن أنبهك الى غوايتك حرصاً على مصلحتك .

— اخرس . لا تقل إنك أخي . فما أنت أخاً ولا أنت ابن العدني

فبهت يوسف واستهجن هذه النغمة التي يرتلها أخوه عليه . أليس هو ابن أبيه جميل العدني ؟ انها لسبّة لعينة . كيف يجسر أن يتفوّه بها . فنزق به قائلاً : صمتاً . أتجسر أن تنطق بهذه الزندقة أمام أبيك ؟ إبن من أنا إذن يا قبيح ؟

فهزّ سليم رأسهُ هزة رحوية وقال ، لا أدري . سل عن أصلك

فسخط به يوسف : ويحك. ما هذا الخلط الذي تخلط . أخبرني ما ذا تعلم عن أصلي وأصلك .

— لا أعلم إلاّ أنك لست أخي .

— أنّى لك هذا العلم الجديد الذي أجهله يا رذيل . مهلاً . سأدينك أمام أبينا يا وغد

— لا تفيدك هذه الدينونة شيئاً . خيرٌ لك أن تسأل عن أبويك .

فاشتدّ غضب يوسف وأمسك به وهزّه وقال ساخطاً : قل من أين اخترعت هذا الإفك يا رذيل . أخبرني ما الذي أوحاه إليك .

— الحقيقة أوحته إليَّ . لست أخي ولا أنت ابن العدني . إنك تقاسمني هذه الأبوّة الكريمة منذ الطفولة . حسبك ما تمتعت بها إلى اليوم

فذهل يوسف لأنه رأى أخاه سليما يجدُّ فيما يقول، ولا بد أن يكون لهذه القالة الدنسة أصلٌ أو سبب . ولما انقشع ذهوله لم يجد سليماً أمامه . فدخل الى مخدعه وانزوى فيه يفكر في طوارىء الزمان . داخله شكٌّ في نسبه . أيمكن أن لا يكون ابن جميل العدني وجميلة زوجته ؟ وإذا لم يكن ابنهما فإبن من هو ؟

عصفت في نفسه عاصفة سوداء من الغم والاضطراب . لعلعت في لبه رعود الأفكار الصاعقة، كاد يرى نفسه كأنه سقط من فضاء العدم الى هذا العالم لا أبٌ ولا أمٌ ولا اخوةً ولا أنسباء وأقارب . ما سكان الواحة الضيقة في صحراء مترامية الأطراف بأشقى منه في وحدته في كرة الأرض .

* * *

بعد برهة استدعى أمه الى مخدعهِ وسألها : قولي لي ابن من أنا ؟

فأجفلت أم يوسف قائلةً . ويحك ما هذا السؤال السمج .

— نعم أود أن أعلم ابن من أنا

— عيب يا بنيّ . أفي العشرين من عمرك توجّه هذا السؤال للحجر الذي حضنك والصدر الذي ضمك ؟

— نعم أود أن أعرف الصدر الذي أرضعني والبطن الذي حملني .

— ويحي . ماذا قيل لك فرابك في أبويك ؟ هل سمعت أكذوبة من أحد فصدّقت ؟

— بل سمعت صدقاً من سليم فلم أستطع أن أكذّب . فأود أن أعرف الحقيقة من فمك الصادق .

عند ذلك دخل جميل الأب عليهما يقول: اني أسمع نقاشاً بينكما في أمرٍ ذي بال. فاخبراني ما الخبر

فقالت جميلة: وانكبتاه! يسألني يوسف من أبواه. فلا أدري من رمى له بكلمة مزاح سمجة فأقامته وأقعدته.

فنظر جميل في ابنه يوسف نظرة اخترقت صدره حتى نفذت في فؤاده وقال: أي أمر مريب رابك في أبويك يا ابني فزرع فتنة بيننا.

—ليس الفاتن غريباً عنا يا أبتاه، هو سليم ابن البيت الحقيقي، قال لي اني دخيل هنا واني مقاسمه نعمة من أهله لا حقَّ لي فيها. فأرجو أن تخبراني من أي عالم مجهول تلقفتماني. فأود أن أعود اليه.

فقال جميل: كل مولود يأتي من عالم مجهول. من يستطيع أن يعود الى عالمه المجهول الأَ حين يقضي الى رحمة ربه

فقال يوسف محرجاً أباه: أجل كل مولود يعرف من ولده إلاَّ أنا. وقد عرفت اليوم انكما لستما والديَّ، واني دخيل عندكما.

— هل تراك أحط منزلة من سليم عندنا. بل ألا ترى أننا نميزك عنه أحياناً. فكان هو أجدر منك بهذا الشك.

— لكن سليماً نفسه قال لي إني لست ابن أبويّ. فعليَّ أن أبحث عن والديَّ الحقيقيين. لا يمكنه أن يستنبط هذه الحقيقة من أم رأسه. فلا بدَّ انه عرفها قديماً أو حديثاً. واليوم دعاهُ الداعي لأن يبوح بها لي. لا يجرأ سليمٌ أن يفضحها إذا لم يكن واثقاً من صحتها

فنزق جميل قائلاً: أين سليم هذا. ادعيه يا أم يوسف. أود أن أعلم كيف اختلق ذلك الخبيث هذه الأكذوبة الكافرة

فقالت جميلة متململة كئيبة. ياويلتاه! ليس هو هنا الآن. ولا أدري الى أي داهية مضى. انه يفتعل لنا كل يوم صداعاً

فقال جميل مزمجراً: لم أعد صابراً على غوايته. سأضعه في مكانه. لا تعره يابنيَّ يوسف أذناً صاغية. أنت ابننا أولاً وهو ابننا ثانياً. ونحن واضعان فيك كل آمالنا. لا تبلبل بالك بهذه الأكذوبة الشيطانية. اعكف على دراستك والله معك

ثم قبله وخرج فتبعته جميلة زوجته الى حجرتها حيث جعلا يتهامسان.

* * *

قال جميل كيف نبش سليم هذا السر الدفين ، من قاله له ؟ ونحن قد احتطنا كل احتياط لكي ندفن السر في أعماق الغيب . فحرّفنا إسمنا وانتقلنا من بيئةٍ تعلم أنه لا ولدَ لنا الى بيئةٍ أخرى علمت أن لنا طفلاً . وعلم أصدقاؤنا الجدد أنه صار لنا طفلٌ كما يصير لكل الناس . فما عرف أحدٌ بأننا اقتنينا لقيطاً وجعلناه إبناً لنا . فكيف طلع هذا السر من قرارة المجهول .

فقالت جميلة : لعلَّ عبلة أختك فرطت منها كلمة ، فهي ثالثة العارفين منا

— لا أظن عبلة تفرّط بكلمة بعد عشرين سنة . وهي كانت شريكتنا في دفن السر . على أي حال يجب أن نكابر ونخمد هذه الظنة .

واجتمع جميل بإبنه سليم وقرَّعه تقريعاً عنيفاً لجحد أخيه . واستنطقه رغم أنفه أن يبوح بمن قال له ذلك الأفك وألقى في باله ذلك الزور . فخنع سليم للتهديد واعترف بأن عمته العانس عبلة قالته له .

فاستشاط جميل وصرفه من أمامه واستدعى أخته عبلة المقيمة عنده معزوزةً وعنَّفها تعنيفاً شديداً لأنها باحت بالسر لسليم .

فاجابت والدموع الغزار تهطل من مقلتيها : أجل لم أعد أطيق أن ابننا الدخيل يتفوّق هذا التفوّق العظيم في العلم على ابننا الأصيل حتى صار يشمخ عليه ويؤنبه أحياناً لتقصيره في الدراسة ، كأنه وليّ أمره ، حتى صرتما أنتما أيضاً تميّزانه على سليم في أمور مختلفة . وصار سليم يحس هذا التميز ويغار . وبات صدره يتقيَّأ غلاً وحقداً . فكيف أطيق أن يحل الدخيل الغريب محل ابننا الأصيل . نعم يصعب الأمر عليَّ جدًّا . فأخبرت سليماً أن يوسف ليس أخاه ، بل هو لقيط فتبنَّيناه لما يئسنا لأن أمك كانت عقيماً لا تلد . ولما صار ربيبهما وتعلَّقا به لم يعودا يتركانه حتى بعد ان جئت أنت . كذا قلت لسليم . فلا تغضب يا أخي . إن ولدك ولدي .

فقال جميل وقد خفَّت سؤرة غضبه قليلاً : إني أقدّر عطف فؤادك حق قدره . ولكن ألستِ ترين أن يوسف نابغة في علمه بشهادة أساتذته وإن سلوكه سلوك الإبن البار . وإن سليماً عكسه على خط مستقيم . فكيف لا أميّز ذاك على هذا .

— ولكن هذا ابننا وذاك غريب عنا .

— نعم هذا هو احساس الجسد . ولكن احساس الروح والعقل شيء آخر . انضمَّ يوسف إلى صدرنا عشرين سنة منذ طفولته وسليم سبع عشرة سنة . فقام يوسف في قلوبنا يعلو ثلاث سنين عن مقام سليم . لا تجهلي يا أختي أن الأبوين من ربيا لا من ولدا . ولادة الروح

أبرّ من ولادة الجسد . أرجو أن تقتلعي من ذهن سليم هذه الحقيقة الظالمة لكي يستردها من يوسف . إني أذوب وجداً إذا شرد يوسف من بيننا وشاعت هذه الفضيحة .

***

ولكن قبل أن تجتمع عبلة بأخيها لكي تتلقى تقريعه ويكلفها بهذه المهمة الثقيلة كان السيف قد سبق العزل إذ عاد سليم اليها على أثر نقاشه مع يوسف . وحتّم عليها أن تقول له من هما أبوا يوسف الحقيقيين لأن يوسف أحرجه ولم يصدق أنه دخيل . فقالت له : العلم عند رئيسة الدير . فقذف سليم بهذا الاعتراف إلى يوسف .

أسرع يوسف الى الدير والتمس مقابلة الرئيسة بالحاح فاستقبلته في قاعة الزوّار وهي تتشوّف الى الزائر الشاب الجميل النضير وعلى محياه سطر من التساآل المقلق المزعج : ماذا عسى أن يبتغي

— سيدتي المحترمة . اعلم أن رسالتك انسانية محضة وإنك صادقة مخلصة فيما تفعلين وتقولين .

— شكراً لثقتك العظيمة . ماذا عسى أن أخدمك .

— أظنك تقبلين لقطاء توجهينهم الى ملجإٍ يتصل بديرك .

فظنت أنه يبتغي أن يعرض عليها لقيطاً فقالت : يندر ان أفعل ذلك . وإلاّ فأفعله مكرهة لأن ديرنا لا يقبل لقطاء .

— وأنا أتحقق منك عن النادر الذي فعلته . هل تتذكرين أنك منذ عشرين عاماً أعطيت لشخص ميسور الحال لقيطاً لكي يتبناه ؟

ففكرت طويلاً ثم قالت : عشرون سنة تذهب بذكرى حادث لا شأن لي به إلاّ في يومه ، ثم يُنسى بعد ذلك . وأنت تعلم أن مثل هذا العمل محوط بالأسرار التي يُحظر كشفها . من كان الشخص الذي تعنيه وما اسمه ؟

وكانت الرئيسة تنظر في يوسف متبينة ما في قرارة نفسه كأنها أدركت أنه هو اللقيط فقال أتذكرين اسم جميل العدني ؟

— جميل العدني ؟ لا أتذكر هذا الاسم يا سيدي .

وبعد تفكير طويل استأذنته وخرجت وبعد دقائق عادت وفي يدها كتيب كأنه سجل مذكرات . وقالت : منذ عشرين سنة زارني رجل باسم جميل المدني لا العدني .

فأبرقت أسرة يوسف وقال : ربما حدث هذا التحريف البسيط في الكنية عن غير قصد . فلعله هو الشخص بعينه .

— أتعلم إنك تسأل عن سرّ محظورٌ إفشاؤه .

— اعلم جيداً واعلم إنك تحفظين هذا السر لقصد شريف وان إفشاءه الآن تتمة لهذا القصد الشريف بل هو الباقي عليك من عملك الصالح . فأرجو أن تبسطي كل معلوماتك عن سرّ جميل المدني أو العدني لأني في ظني ضلع من اضلاع هذا السرّ .

— ملخص ما في مذكرتي إن هذا الرجل جاءني ذات يوم يقول لي إن زوجته عاقرٌ ولا يريد أن يطلقها . ويستنكف أن يتزوج أخرى لأجل نسل . فيود أن يتبنّى صبيًّا لقيطاً . فقصد اليّ لهذا الغرض لأنه قيل له أن اللقطاء يطرحون أحياناً أمام باب الدير . وترك عنوانه لكي أستدعيه إذا عثرت على لقيط. ومن غرائب المصادفات كان كأنه على ميعاد مع لقيط لأنه في اليوم التالي جاءت اليّ امرأة بطفل تتوسّل اليّ أن أقبله في الملجإ التابع للدير . فقلت لها أن حظ طفلك لسعيد جداً لأنه جاءني أمس رجل يلوح لي أنه سريٌّ وإنه ذو أخلاق سامية وتمنّى أن يوفَّق الى لقيط لكي يتبناه . وتركت المرأة الطفل . وأرسلت خبراً للرجل فجاءني. فسلمت هذا كما استلمت من تلك . هذا فحوى مذكرتي .

— شكراً لمعلوماتك الثمينة يا سيدتي . هل استلمت وسلمت من غير قيد ولا شرط ؟

— تقريباً هكذا . تعهد الرجل ان يربي الطفل تربية صالحة . واشترط أن لا يعرف أهل الطفل مصيره وليس لهم أن يطالبوا به . اما انا فوثقت إنه مصير سعيد للطفل فقبلت الشرط .

— وماذا اشترطت أم الطفل

— لم تشترط شيئاً سوى أن تبقى مجهولة . وكانت بالفعل مجهولة لأنها لم تخبرني شيئاً عن هويتها البتة . فكأنها جاءت من عالم الغيب . وبعد أن سلمتني الطفل عادت الى عالم الغيب .

— أما تركت أثراً ولو عن غير عمد

— بلى تعمّدت أن تترك أثراً للطفل . لأنها بعد نحو شهر من الزمان عادت اليّ وفي يدها هذه الحلية . وهي كما ترى قلب ذهبي بسلسلة ذهبية . وقالت إنها تود أن تعطي الطفل هذا التذكار حيث هو ، وإن تحفظ معه له حيث هو . وقصدت أنا بعد ذلك الى عنوان جميل المدني فقيل لي انه انتقل من هناك الى منزل يجهله الجيران . وقال بعضهم إنه رحل الى الاسكندرية . فبقيت هذه الحلية معي الى اليوم تنتظر ما يفعله القدر بشأنها .

فتناول يوسف القلب الذهبي من يد الرئيسة وجعل يقلّبه بين يديه الى أن قال : أتسمحين لي به بثمن .

— إن كنت انت الفتى الذي كان ذلك الطفل فهو لك وإلاَّ فما هو للبيع .

— ماذا تريدين اثباتاً على إني كنت ذلك الطفل .

— هل أنت واثق إنك كنته ؟

— كل الثقة . لأن قصة ذلك الرجل المسمى جميل المدني تطابق كل المطابقة قصة جميل المدني .

— إذاً فأنا واثقة بقولك والقلب لك . خذه وإنما أرجو أن تعطيني ايصالاً بأنك تسلمته .

فكتب يوسف لها إيصالاً كما رغبت . ثم سألها . أما عادت إليك المرأة بعد حين تسأل عن الطفل .

— بلى عادت بعد عامين تسأل عنه لكي تطالب به فقلت لها « في الصيف ضيَّعت اللبن » لأن الذي تبنَّاه اشترط أن لا أبلغ أحداً أين صار مصيره . ناهيك عن ان عنوانه تغير ولا أعرفه . وقد توارى في احياء القطر . فعادت خائبة .

— أما أمكنك أن تعرفي شيئاً عن هذه المرأة وعن مكانها أو اسمها إلى غير ذلك ؟

— كلاَّ البتة . هي السر المجهول الذي لا أستطيع الوصول إليه . هي اللغز المغلق . لغز أعمق من لغز متبني الطفل .

— شكراً عظيماً لك يا سيدتي . لقد تفضلت عليَّ بأكثر مما أملت . أسأل الله أن يقدرني أن أكافئك بالخير . الى الملتقى

* * *

بعد هذه الغزوة الموفَّقة ارتاح يوسف نفساً بعض الراحة . لم يبق عنده ريب في أن هذه الذخيرة الذهبية هي هدية له من أمه والدته . ولكن أين هي والدته ؟ ومن هي ؟ لماذا أودعته لقيطاً في الدير ؟ وماذا كانت حياتها . وهل لا تزال حيَّة أم سبقته الى عالم الأرواح ؟ هذه الأسئلة صارت في عهدة الزمان . فهل يمكن أن يجاوب عليها الزمان ؟ . كان أمله بهذا ضعيفاً جدًا كومضة اليراعة في حلك الليل .

أحسَّ يوسف إحساساً قويًا إنه غريب جدًا عن جميل المدني وزوجته جميلة ، وإنه دخيل في دارهما ، وصار يشعر أنه ثقيل في تلك الدار مهما تلطف أهلها به . لم يذكر لهم شيئاً عن زيارته لرئيسة الدير بتاتاً .

وكان يوسف في السنة الأخيرة في كلية الحقوق . وكان متفوقاً فيها تفوُّقاً فوق العادة .

وكان الأساتذة والعميد يحبونه حبًّا جمًّا لذكائه ودماثة أخلاقه وطاعته وحسن سلوكه . وقصد حينئذٍ إلى سعادة عميد الكلية وطلب إليه أن يزوّده بكتاب توصية للأستاذ م . ع . المحامي الكبير لكي يخدم عنده في وقت فراغه ويتمرّن لقاء أجر زهيد ، فنفحه العميد بتوصية رفعته الى صف العلماء الأعلام . فما تردّد الأستاذ م . ع . أن قبله كاتباً عنده بعد الظهر . وما مضت أيام حتى أعجب به الأستاذ المحامي أي اعجاب وشعر أنه وقع على مساعدٍ نابغة . ولما انتهت الدراسة ونال يوسف الدبلوم صار مِعوان الأستاذ المعتمد عليه . وكان يوسف يعلق مفتاح مكتبه بسلسلة القلب الذي ناله من رئيسة الدير . وكثيراً ما كانت أصابعه تلعب بالسلسلة كما تلعب بمسبحة كأنه يجد لذّة في هذا

في ذلك اليوم الذي دخل يوسف في خدمة المحامي وهو لا يزال طالباً كتب الكتاب التالي الى أبيه : —

« سيدي الأب الحنون المحترم »

« لا يمكنك مهما تطوّحت في التصوُّر أن تتصوّر قدر حبي لك ولأمي واحترامي لكما وتقديسي لعطفكما وشكري العظيم لِعنايتكما بي مدّة عشرين سنة قضيتها في حجريكما وعند صدريكما إبناً عزيزاً محبوباً . ولا أدري ماذا يكون من أمري لو لم يهيء لي القدر الكريم أن أكون في حضانتكما وتحت رعايتكما . لا ريب أني لا أكون في النعمة التي أسبغتما عليَّ .

فشكراً لله الذي حرمني من والديّ وأودعني بين أيديكما . تنتهي حياتي عاجلاً أو آجلاً ولا ينتهي تقديري لفضلكما وشكري لعطفكما

كفى ما حملتكما من عبئي . وقد أوشكت أن أعتمد على نفسي في مسترزقي . فاسمحا لي أن أستقل في معيشتي تخفيفاً لكما من حملي .

تكرّم الأستاذ المحامي الشهير م . ع . فقبلني كاتباً في مكتبه بعد الظهر قبل أن أتمم دراستي . فشكراً له . لا تستفقداني . فقد أقمت في منزل صغير لائق بين الكلية والمكتب ولا آلو جهداً في أن أزوركما كلما أتيحت لي الفرصة . أقبل أيديكما خاضعاً طائعاً ووجنتي أخي سليم محبًّا مشتاقاً . وعمتي عبلة محترماً. ولدكما الطائع .

يوسف

وجمع يوسف « شنطته » وترك هذا الخطاب على سريره ومضى في غلس الليل .

ما اطّلع جميل العدني على هذا الخطاب حتى جنّ جنونه ومضى إلى الكلية قبل انصراف الطلبة منها وأخذ يوسف من بينهم ومضى به إلى مكان منفرد ، وجعل تارةً

يؤنبه تأنيباً لطيفاً على افتراقه عن أهله . وتارة يتوسل إليه أن يعود الى البيت لأنه ابنهما الحقيقي خلافاً لما أوهمه سليم . ولكن يوسف لم يرعو . فأصرّ على الفراق شاكراً الى أن قال جميل : هب أن ما بلغ اليك صادق الخبر وقد نبذك أبواك . ثمّ رباك أبوان آخران فمن أذنب إليك ؟

— لا هذان ولا ذانك

— ومن أولى ببنوّتك

— لا أحد . وانما للذين ربياني فضلٌ عظيم لا أنساه ودين عليّ أعظم أكافئه بجني حياتي

— أنت تعلم إننا غنيان عن جني حياتك ، بل بالأحرى نود أن نمنحك شطراً كبيراً من جني حياتنا . فلمن تمنح حق بنوّتك .

— لغير أحد

— إذن أنت ابنٌ لمن .

أنا ابن الطبيعة . فبحكم الطبيعة ولدني والداي وبحكم الطبيعة عطف عليّ أبوان غريبان . لطبيعة خلقت العطف هنا ، والشهوة هناك . فكلا الفريقين كانا ينفذان سنة الطبيعة . الآن نا ابن الطبيعة .

— حسنٌ . أليس لسنة الطبيعة حقٌّ عليك

— بلى لسنة الطبيعة حقٌّ على كل إنسان

— ما هو حق الأبوين العطوفين عليك إذن ؟

— حبٌّ عميق لقاء عطف شديد . وعندي منه ما يطوّع البحر الملتج ويخضع روق لجبل الراسي

— إذن ليس ما يمنعك أن تعود الى المنزل الذي فيه نشأت والحجر الذي فيه ترعرعت . ربك يا بنيّ عد إلى قلوبنا ولا تملأها جمر نار بفراقك

وقبّله جميل فقال يوسف مقبلاً أيضاً : لست بعيداً عنكم يا أبتِ إنكم في سويداء قلبي لى البعد والقرب ، يستحيل أن أنسى القلبين اللذين صنعا مني إنساناً . إسمح لي يا أبي أن نفي الى واجباتي ، السلام عليك

وترك يوسف أباه مخبولاً

* * *

في آخر الشهر دفع الأستاذ م . ع . ليوسف اثنى عشر جنيهاً قائلاً وعدتك أن أعطيك سة جنيهات أجراً . ولكني رأيت أن عملك يستحق مضاعف الأجر

فنظر فيه يوسف قائلاً : أمن خمسة جنيهات الى إثنى عشر من أول شهر ؟ هذا غير معقول يا أستاذي . وأنا لا أزال طالباً . لا آخذ إلاَّ الخمسة التي وعدتني بها . وأنا لا أستحقها وإنما أحسبها صدقة منك

فألحَّ عليه الأستاذ فلم يأخذ فقال له : الخمسة لا تكفيك نفقة . فخذ والزيادة احسبها ديناً عليك استوفيه من أجرك في المستقبل حين تنتهي من الدراسة وتتفرغ للعمل ويرتفع راتبك .

— الخمسة تكفيني . ولا أريد أن أنفق على حساب الدين . وإن لم يُقدَّر لي أن أخدمك في المستقبل فمن يدفع الدين ؟

— أبوك تعهد لي أن يدفعه

فضحك يوسف وقال : أرجو منك يا سيدي الأستاذ أن ترد السبعة الى أبي . لا أريد أن أحمّل أبي ديوني . حسبي ما حمّلته منها في ماضي حياتي

* * *

وحصل يوسف على شهادة الحقوق بامتياز عظيم ، وتمكن كرسيه في مكتب الأستاذ م. ع. الشهير . وما مضت أشهر حتى صار يوسف يد الأستاذ اليمنى . وصار يقضي بعض أشغال الزبائن من غير أن يعرضها على أستاذه الاَّ منتهية خارج المحكمة ، حتى أعجب به الأستاذ أيما اعجاب وكان محسوداً عليه .

وفي ذات يوم جاءت سيدة الى المكتب لعرض قضية لها فاستقبلها يوسف وأبلغها أن الأستاذ متغيب في الاسكندرية بقضايا وانه في امكانه أن يسمع قضيتها ويقول رأيه فيها .

لا بأس فقد سمعت كثيراً انك تقضي شتى الأشغال بالنيابة عن الأستاذ بنجاح . فيسرني جدًّا أن تسمع قصتي .

فاعتدل يوسف في مكانه وهو يتبين السيدة وهي في منتصف العمر ، لها مسحة من الجمال لا غبار عليها ولها نضرة من نضرات الشباب ، لم تهب عليها لفحة الكهولة بعد . وقال تكلمي يا سيدتي .

— قصتي قصيرة بسيطة . لي زوج غير شرعي منذ عشرين سنة

فضحك يوسف قائلاً : إذن ليس زوجاً .

— بلى ساكنني معظم هذه السنين مساكنة الزوج للزوجة . وكلما طلبت اليه أن نعقد عقد الزواج راوغ وماطل قائلاً : أما نحن زوجان ؟ ألا يعتبر الزواج إلاَّ بعقد ؟ فكنت

أقول له : لا زواج إلاَّ بعقد . فنحن خليلان . وهذا ما لا أقبله . ولم أقبله إلاَّ بعد وعد. وما زال يعد ثم يماطل . وإذا هجرته يعود فيعد ثم يماطل حتى ضقت ذرعاً . وأخيراً قلت له هذا حال لا أرضى به . إما أن تتزوجني شرعاً ، أو أن تدفع لي تعويضاً كافياً عن مساكنتك لي طوال هذه السنين . فأبى الأمرين معاً حتى اضطررت أن آتي اليك مستنجدة .

فقال يوسف محققاً . أما تزوج غيرك ؟

— كلاّ .

— هل هو غني يستطيع أن يدفع التعويض ؟

— نعم . يمكنه أن يدفع الفين أو ثلاثة أو أكثر ولكنه بخيل بعض البخل .

ففكر يوسف برهة ثم قال : سأستدعيه وأبحث معه وأرى ماذا يكون من أمره . سأكتب له الآن . وأعين له الميعاد بعد الغد بمثل هذا الوقت . ما اسم حضرتك واسمه وعنوانه ؟

— اسمي ليلى النعمانية . واسمه خليل العاطر وعنوانه .....

***

في الميعاد جاء خليل العاطر فاستقبله يوسف ببشاشة وتلطف وكان كلٌّ منهما ينظر في الآخر متبيناً . فهذا يرى أمامه فتى في أول الشباب وعلى محياه سمات المحامي المحنك وذاك يرى أمامه رجلاً في شرخ الشباب أنيق الهندام كأنه من الأعيان . وما تردد يوسف في شق الحديث

— أمس الأول كانت السيدة ليلى النعمانية زوجتك هنا ....

فقاطعه خليل قائلاً : ليست زوجتي يا أستاذ

فضحك يوسف وقال : لا أظنك تقبل على نفسك الشريفة أن يقال إنها خليلتك بعد عِشرةَ عشرين سنة لئلاَّ يقال إنها مومس . ولا أظنك ترضى أن تساكن مومساً .

— ولكن لا عقد زواج بيننا .

— لطالما قلت لها لا أهمية لعقد الزواج . إن المساكنة تعتبر عقد زواج وقد ساكنتها ما يقارب العشرين سنة فلم تبقَ قيمة لعقد الزواج . وأنت لم تجعل لعقد الزواج قيمة . فهل تريد أن تطلقها ؟

— هي لا تريد أن تطلقني . وأما أنا فلا بأس عندي أن نبقى كما نحن .

— لا بأس من هذا وهي لا تمانع ، وانما تريد أن تضمن سنداً لمستقبلها . قد يأتي يوم

تكون فيه وحدها في الدنيا لا معين لها . فهل يوافق ضميرك أن تتركها للفقر والبؤس .

فتململ الرجل كأنه أُمسِك بخناقه وحار فيما يجيب . ثم قال بعد تردد : ما دمت أنا في قيد الحياة فلا تخاف بؤساً .

— وإذا أفلتَّ من قيد الحياة ؟ هل بينك وبين عزرائيل عقود وعهود .

— ولكن ...

— لا لكن في الأمر . سواء عقدت زواجاً بها أو بقيت خليلة لك فعليك أن تعطيها مالاً يؤمنها على نفسها . وإذا كان في وسعها أن تأتي بشهود على مساكنتك لها مدة عشرين سنة . فالمحكمة تحكم لها بربع ثروتك بحيث لا يقل الربع عن أربعة آلاف جنيه . فالأفضل ألاّ تقع قضيتكما بين يدي القاضي العادل . وإذا منحتها هذا الحق فيصبح خيراً لك أن تتزوجها شرعاً .

فوقع خليل في حيص بيص وقال : والله ما أحب الى نفسي من أن تكون زوجتي شرعاً . وكنت قد وعدتها بالزواج اذا ولدت غلاماً . فولدت الغلام ثم دهورته . إذن فهي قد أضاعت حقها بسوء عملها .

حينئذٍ برزت ليلى من الباب لأنها كانت منتظرة وراءه تسمع الحديث بحسب تعليمات المحامي . وقالت حرام عليك أن تبرىء نفسك بالكذب . عرفت أني حامل ثم ولدت صبيًّا فجفوتَ وتركتني أمًّا لا عون لها ولا مال ولا رضى أهل . فماذا تنتظر أن أفعل غير أني أتخلص من الطفل لكي أسعى الى تحصيل رزقي .

— أما رجعت اليكِ ولمتك على دهورة الطفل وطلبت اليكِ أن تسترديه ليكون لنا أقوى من عقد الزواج .

— وقد علمتَ جيداً اني بحثت عن الطفل حيث أودعته فعلمت انه صار بين ايدي أناس يربونه ويعنون به . ولكنهم لم يتركوا خبراً عنهم لأنهم لايريدون أن يردوا الطفل. لقد غاب الطفل في عالم الغيب وأنت الملوم .

وكانت ليلى لا ترد بصرها عن السلسلة التي تتلاعب بها أنامل المحامي يوسف كل الوقت فطمحت أن تتناولها منه . ولكنها خشيت أن تفعل . وما لبثت أن تجرأت وقالت . ماذا في هذا القلب المعلق بالسلسلة يا أستاذ ؟ أرسم حبيبة لك ؟

فأجفل يوسف . ونظر في القلب وقال . حقًّا لا أدري ماذا فيه ، ولا خطر في بالي أن يكون فيه شيء . فقالت ليلى بصوت متهدج : أما أنا فأؤكد لك أن فيه صورة عاشقة لك . أما هو هدية من حسناء . افتحه وانظر .

فتناول يوسف مدية واحتال على حرف القلب وشقه فخرجت منه وريقة صغيرة عليها صورة حسناء. فخفق قلبه. وخفق قلب ليلى.

وقالت: أما قلت لك ان فيه رسماً لحبيبة عاشقة

وتقدمت اليه وخطفت منه الصورة وقالت أتعرف صورة من هذه

— لا

أنا أعرف. هي صورة من تذوب شوقاً اليك. أنظر فيَّ وفيها

فبهت يوسف وارتمت عليه تقبله: «ولدي ولدي». فصدها بلطف قائلاً: مهلاً يا سيدتي. بيننا حساب يجب أن نصفيه

— ويحي. انك من لحمي ودمي

— ولكني لست من روحك. أظن انكِ والدتي ولكنك لست أمي.

ومدَّ خليل يده ليصافحه قائلاً، لقد تمَّ العقد الشرعي بيننا الآن يا ليلى. انتِ زوجتي الشرعية منذ الساعة. إليَّ يا ولدي.

فامتنع يوسف أن يمد له يداً وقال: قد تكون والدي ولكنك لست أبي. كنتما والديَّ في شهوة ساعة وانقضت. ثم صار لي أبوان في حب عشرين سنة. فليست بنوَّتي لكما بل لحاضنين غمراني بالحب والحنو واللهفة.

فقالت ليلى: ويلي لقد ذبنا شوقاً اليك وبقوة الحب كنا نطلبك فلا نجدك. رحمة يا بنيَّ

— ممن طلبتماني؟ أمن القدر النائم. كان يجب أن تطلباني من الطبيعة اليقظة. اني ابن الطبيعة. الطبيعة كالراديوم تشع الحب الى الأبد. وأما القدر الأعمى فهو قبر الحب.

فقال خليل: لقد بُعث حبنا الآن يا بني وانفجر شوقنا وسطع شعاعه كضوء الشمس واحتدمت حرارته كحرارتها.

فضحك يوسف وقال: أين كان خابياً في العشرين سنة الغابرة فلم ينفجر؟ تكاد جمراته تنطفىء. فلم يبقَ بيننا حبٌ يا والديَّ. وانما بقي بيننا احترام واكرام.

قالها بغصة وجنح الى غرفة أخرى كي يخفي تأثره فيما كانت ليلى تقول له ذارفة دموع الحنو الوالدي: لا أطيق يا بني أن تكون قاسياً علينا الى حد الجفاء المطلق بل تسمح لنا ببعض أويقات نتمتع فيها بلقائك.

— لكما ذلك.

وبقبلات تشفي الغليل ودَّعاه.

نقولا الحداد

باب الأخبار العلمية

المدخرات الشخصية
في الولايات المتحدة

أخذ الأمريكيون يعودون إلى مايسميه أصحاب البنوك « عادات الإدخار في وقت السلم » . ولكن ارتفاع تكاليف المعيشة وانتشار تجارة السيارات والثلاجات وأجهزة التليفزيون ، تقضي بصرف جانب كبير من الدخل الشخصي . ويستطيع الأمريكي متوسط الحال أن يشتري ما يحتاج إليه بأثمان مرتفعة ونتيجة لذلك يقلّ ما يدّخره عما كان يدخره في اثناء الحرب عند ما كاد يوقف انتاج البضائع المستدعة التي يحتاج إليها المستهلكون. وعلى ذلك أصبحت المبالغ التي تسحب من بنوك الإدخار أكثر من المبالغ التي تودع فيها نظراً لأن النقود تستغل الآن في الأعمال التجارية وبناء المساكن وغير ذلك من الأعمال التي تدر دخلاً مستمراً ، بدلاً من ادخارها . ومن الأمثلة على ذلك أن المبالغ المسحوبة من بنوك الإدخار في خلال الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٤٨ زادت بنسبة ١٠ ٪ في مثل هذه المدة من السنة الماضية بينما زادت المدخرات بنسبة ١½ ٪ فقط .

وحالة الإدخار في الوقت الحاضر على عكس ما كانت عليه فيما قبل الحرب . ففي النصف الثاني من المدّة الواقعة بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ بلغت نسبة المدّخرات الشخصية ٢ ر ٤ ٪ من صافي الدخل الشخصي الذي يمكن التصرف فيه بعد دفع الضرائب.

* * *

وفي سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ارتفعت النسبة الى ٤ ر ٥ ٪ وأدّت ندرة السلع التي يريد شراءها المستهلكون الى زيادة المدخرات حتى بلغت نسبتها ٢٠ ٪ من الدخل في اثناء الحرب .

وفي سنة ١٩٤٦ قلّت نسبة المدّخرات حتى بلغت ٤ر٧ ٪ وانخفضت الى ١ر٥ ٪ في سنة ١٩٤٧ أي الى المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب تقريباً .

اختبار الطائرات النفاثة

في المناطق الحارة

دعا إلى بريطانيا أخيراً الضابط الطيار جورج فرانسيس بعد أن قام برحلة استغرقت عامين تقريباً على متن احدى طائرات دي هافيلاند النفاثة جاب في خلالها أقطار الشرقين الأوسط والأقصى. وكان الغرض من هذه الرحلة هو معرفة مدى تأثير اجواء المناطق الحارّة على الطائرات النفاثة وادخال الاصلاحات اللازمة عليها لاستكمال نواحي النقص فيها.

* * *

واقترح فرانسيس وجوب تزويد مكان القيادة بآلة للتبريد باعتبار أن درجة الحرارة كانت تتراوح في بعض المناطق بين ١٤٠ و ١٥٠ درجة فهرنهيت وبلغت أقصاها في مناطق أخرى ١٦٤ درجة.

ومما يذكر أن جورج فرانسيس يعتبر أول طيار في العالم قام بأطول رحلة بواسطة طائرة نفاثة وهي المسافة بين سنغافورة والخرطوم. وزار خلال رحلته في المحيط الهادي سلاح الطيران في الفلبين وسلاح الطيران الأميركي

وكانت آخر رحلاته هي التي قام بها بين الخرطوم ومصانع دي هافيلاند بانجلترا ويبلغ طولها ٤٧٦ ميلاً حيث ستجري عليها مختلف التجارب لاختبار هيكلها ومعرفة أثر المناطق الحارة عليها.

حبوب من البلاستيك

تخفف من آلام قرح المعدة

قام كيمائيو الأبحاث بإنتاج مادّة جديدة وصفها مستر جيمس ونتر، من شركة المنتجات الراتنجية والكيمائية بفيلادلفيا بأنها «حبوب من البلاستيك تطرد الآلام الناجة عن قرح المعدة وتنقي العقاقير والفيتامينات وتبسط زراعة الأوركيد وغيرها من الزهور».

وفي خطاب ألقاه ونتر أمام الجمعية الكيمائية الأمريكية في اجتماعها الجزئي قال:

«إن مكافحة زيادة الأحماض في المعدة عامل هام في شفاء القرح. فالعجائن الجديدة المعروفة باسم الراتنجات «المبادلة للدالف» تمتص الأحماض وتوقف نشاط المادّة الكيمائية الهاضمة المسماة «بيسين» فتؤدي بذلك الى تخفيف وطأة الألم ... ولا تحدث «ردّ فعل حمضي أي ازدياد افراز الأحماض الذي يصحب استخدام القلويات العادية.

كما قام ونتر بشرح أثر الراتنجات «المبادلة للدالف» - أو العجائن - في تنقية الفيتامينات وزراعة الأزهار النادرة واستخراج قدر أكبر من السكر من قصب السكر، وتسهيل استخلاص المعادن الثمينة من المحاليل المهملة

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس عشر بعد المئة

٣٥٥ وداع وترحيب
٣٥٦ النسبية في العملة المتبادلة : نقولا الحداد
٣٦٠ نظرات في النفس والحياة : نظرات جوته : ع . ش
٣٦٥ ماهي الغاية القصوى
٣٧٠ الوراثة الاجتماعية تطغى على الوراثة الطبيعية
٣٧٤ بعض مفاخر الاميركان (بعض قصيدة) : حافظ ابرهيم
٣٧٥ الضمان الجماعي كيف ينفذ
٣٧٩ الشاعر السامي (قصيدة) : أحمد زكي أبو شادي
٣٨٦ حجة فلسطين ومن ذا الذي كتبها لليهود : نقولا الحداد
٣٩٢ سقراط الفيلسوف : الحكمة تصلب : نقولا الحداد
٤٠٣ أبن الطبيعة (قصة) : نقولا الحداد
٤١٦ أخبار علمية * المدخرات الشخصية في الولايات المتحدة . اختبار الطائرات النفاثة . حبوب من البلاستيك تخفف من آلام قرح المعدة

بعض محتويات العدد القادم

تضخم الكون الاعظم

بحث علمى طريف

العزلة فى رأس الجبل

نقاش صحفى مع ناسك

جدال : بين الحرية والعبودية

أدبى أخلاقى

ماذا يعرف

بحث فلسفى

ضريح شهيدة الامانة

قصة عجماء

فلسفة الوجود : «ملحق»

لرئيس التحرير

مشاجرات أموات وأحياء : وتدخل ملاك بينهم